الجزء الثانى

المدينة والريف

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

التحضر والمدنيـــة

فى هذا الفصل سوف نفحص الطرق التى حاول بها علماء الاجتماع وعلماء الانثروبولوجيا ، فهم نمو المدن (التحضر) وفهم طبيعة الحياة الاجتماعية فى المدن – المدنية – .

وبالرغم من أن الاستقرار فى المدن ، فى مختلف المجتمعات البشرية منذ خمسة آلاف عام ، فإننا نجد أن كل المدن ليست متشابهة ، وهى نتاج تأثيرات مختلفة ، ولذا نجد بوضوح أن روما القديمة ، ولندن الحديثة مختلفتان . وأحيانا لا نستطيع وصف الاختلاف بدقة .

فمثلا ، الاختلاف بين "ليجوس" فى "نيجيريا" و "باريس" ربما لا يكون من السهل وصف هذا الاختلاف .

وعندما ينظر علماء الاجتماع إلى المدن ، فإنهم يهتمون بنوعين مترابطين من المشاكل وهما :

(١) الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لنمو المدن فى أماكن بعينها .

(٢) نمط العلاقات الاجتماعية التى تميز المدن .

وإذا نظرنا إلى تلك الأفكار بتفاصيل أكثر فسوف نرى أولا وعلى وجه الخصوص المدخل الإجتماعى ، وثانيا ، كيف نتعامل فى علم اجتماع التنمية ، مع هذه المشاكل من منظورها الخاص ، بمعنى أننا إذا ما فحصنا أسباب نمو مدينة ما ، فإننا نسأل عدة تساؤلات عن تاريخها ، وسيرتها ونشأتها (biography) . وربما تكون قد تعلمت من دروس الجغرافيا أن مدنا كبيرة مثل "مانشستر" قد نمت بسبب الموارد الطبيعية القريبة ، وهذه الموارد يمكن استخراجها باستخدام التكنولوجيا المتاحة ، لكى ننتج (صناعة القطن) المنسوجات القطنية . وعلى سبيل المثال ، فإن هذا النوع من التوضيح ، هو البداية التى توضحها العلوم الاجتماعية . إلا أنها تترك أسئلة بدون إجابة . مثل : لماذا أصبحت هذه الوسائل التكنولوجية متاحة ومربحة ، وتستخدم فى ذلك الوقت ؟ ولماذا كان هناك مطالب كثيرة على المنتجات القطنية ؟ ولماذا تتواجد الناس للعمل فى المحالج ؟ وماذا كان عملهم من قبل ؟ وكيف كان حثهم على التوقف عما كانوا يعملوه من قبل ؟ ... وهكذا .

وبكلمات أخرى ، ماهى التغيرات العامة والاقتصادية التى حدثت وأدت إلى إنشاء صناعة المنسوجات البريطانية فى ذلك الوقت وفى هذا المكان ؟

ماذا عن السؤال الثانى ؟ طريقة واحدة لنجيب عليه ، وهى أن نقسمه إلى جزءين ، المقياس أو المستوى الكبير والمقياس الصغير جدا .

أولا أو فى الجزء الأول يمكننا اعتبار الاستخدام الطبيعى للمساحة الفضائية ، والتى يشغلها جماعات اجتماعية مختلفة ، والجزء الثانى هو ، كيف يفسر الناس فى المدينة لأنفسهم وللآخرين ، معنى حياتهم ، وإنك هنا سوف تفكر ، وعلى وجه الخصوص فى كلمة "معنى" فى ضوء علم الاجتماع الفيبرى . تذكر تأثير مايراه "فيبر" من معتقدات الناس على حركتهم الاجتماعية "social action" فإذا ما فكرت فى مثل ذلك ، فإنها ستقودك إلى نقطة متوسطة بين استغلال المكان ومعتقدات الفرد ، وإلى الأشكال التنظيمية التى يتبناها الناس فى المدينة ، مثل منازلهم وأنديتهم والأماكن الدينية وتجمعاتهم السياسية . هذه الأوضاع الثلاثة – التاريخية والثقافية والتنظيمية تمدنا بإطار العمل للحديث عن التحضر وعلميات التنمية .

وهناك طريقتان رئيسيتان تقليديتان لهما تأثيرهما ونفوذهما . الأولى منهما تمتد جذورها إلى علم اجتماع "إميل دوركايم" و "فرديناند تونيز" ، وسوف تسترجع كلا منهما ، آخذا فى الاعتبار مشاكل القرن التاسع عشر الأساسية – وضياع أو فقدان المجتمع ، على الرغم من أن ذلك كان مشكلة القرن التاسع عشر ، إلا أنها ظلت معنا حتى الآن فى أشكال مختلفة وليست أقلهم بسبب الطريقة التى من خلالها مررنا بتجربة الآخرين (otherness) وإلى ظهور المجتمع غير محدد الهوية أو الشخصية "impersonality" ، والتى كان لها تأثيرها الكبير علينا . وبعض الناس يعتقدون (أن المشاكل الداخلية للمدينة) هى جزء ناتج عن فقد أو ضياع المجتمع . (loss of community) . إن الطريقة التقليدية لعلم الاجتماع الحضرى ، قد نمّت بناء نظرية السوفسطائية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بين العشرينات والثلاثينات ، وتعرف باسم "مدرسة شيكاغو" ، وأهم هؤلاء النظريين "لويس ويرث ١٨٨٧ – ١٩٥٢" * و "روبرت بارك ١٨٦٤ – ١٩٤٤" ، وإن أحد الأبحاث التى حازت الاهتمام ، هو البحث الذى قام به ونشر فى كتابه بواسطة "زورباخ" (F. Zorbaugh) بعنوان "ساحل الذهب والأحياء الفقيرة" "The Gold coast and the Slum" وأهم مشكلة تعرضها هذه المدرسة ، هى النظام الاجتماعى لمجتمع المهاجرين – عمليات التكامل واستيعاب الأعداد الكبيرة من الغرباء فى المدن

---

* لويس ويرث هو نفسه كان مهاجرا .

الأمريكية العظمى . إن المفهوم الأساسى المنظم لهذا المدخل هو الثقافة الفرعية للمدينة – والنسق المعرفى للمجتمعات المهاجرة والمجتمعات الطبقية فى شيكاغو وديترويت "Detroit" قد وجدت طريقها للوجود إلى جانب الأخلاقيات الاجتماعية الظاهرة للمدينة ، والتى انعكست بطريقة ما على الثقافات الفرعية المختلفة ، والطبقات التى تعيش فى أجزائها المختلفة ، وبالرغم من أن الخط الأساسى للبحث فى التحضر فى دول العالم الثالث ، ليس له جذور فى مثل هذا المجتمع التقليدى ، ولكنها تستعير بعض أفكاره ، مثل الثقافة الفرعية والهضم أو الاستيعاب "assimilation" والتكامل .

"التحضر والنظام الاجتماعى" "Urbanisation and Social Order"

هناك تأثير أو نفوذ على دراسة التحضر من "دوركايم وتونيز" . ومشاكل علم الاجتماع لا تعكس فقط الاهتمامات الأكاديمية الخالصة للباحث ، بل ترتبط بالمعنى الواسع للمشاكل الاجتماعية .

إن حكومة المدينة والناحية الإدارية تتطلبان معلومات ومعرفة عما يدور بين الناس ، حيث يوجد أناس جدد بين قاطنى المدينة ، والذين هم مسئولون عن الحفاظ على سيولة الشكل النظامى للمدينة ، والذين يطالبون بمعلومات (اجتماعية) تساعدهم على فهم وضبط المشاكل الاجتماعية للمدينة النامية .

إن بعض المظاهر السطحية للمشاكل الاجتماعية لمدينة مثل "شيكاجو" هى نفسها فى "كوالالمبور" و "بيونس إيرس" أو "الكيبتون" .

إن هذا التشابه الظاهرى ، أدى إلى تطبيق نظرية (التحديث) والتحضر . ويمكن أن نرى هذا الجدل فى إطار ٣ – ١ .

إطار ٣ – ١

التصنيع والتحضر : (Industrialisation and urbanisation)

إن التصنيع هو لب العمليات الإقتصادية للتنمية وهو ظاهرة واضحة فى غرب أوربا وشمال أمريكا ، وهو يوضح أن التصنيع والتحضر والتنمية مرتبطة كلية . ففى الدول المتقدمة ، التحضر والتصنيع هما الواسطة " cagalysts " ، والمعبر إلى التنمية الريفية .

وقد ادى ذلك إلى تحديث الزراعة كتحسين فى الحياة الريفية ، مع ربط المناطق الريفية ، لتكون نسقا متكاملاً للإنتاج والاستهلاك مع المدن كمراكز صناعية .

وهذا الرأى يشكل ظاهرة هامة حيث تأخذ شكلاً أو افتراضا أساسيا ، وهو أن التنمية تتوافر بعيدا عن المدينة ، وأن الأماكن أو المناطق الريفية تنتظر هناك لكى تتقدم وتنمو . وهذا الرأى أو هذه النظرة تعرف بـ "dualism" أو الثنائية ، لأنها تفترض أن النسقين الاقتصادى والاجتماعى – "الحضرى والريفى المتقدم والنامى" – كل منهما يوجد بجانب الآخر ، ولابد من ربطهما معا من خلال عمليات التحضر والنمو . وهى تعكس ما يدور فى كثير من المجتمعات الاستعمارية .

هذا الرأى يوضح منظور أو مفهوم الحكام الاستعماريين . وأحد اهتمامتهم الأساسية ، وهو كيفية الحصول على عمالة كافية لاحتياجاتهم فى المصانع الحديثة . وبدون وجود هذه العمالة فى المدن التى ستصبح عاجزة عن التكيف معهم ، قد يشكل ساكنوا المدن الجدد خطرا على النظام .

إن هذه المخاوف مازالت تتردد فى دول العالم الثالث حتى الآن . وقد ظهرت بوضوح فى جنوب أفريقيا ، حيث أيدولوجية الحكومة وسيطرتها على التدفق الداخلى ، والتى أصبحت أساس سياسة التفرقة العنصرية . وترى هذه الحكومات الاستعمارية أن هجرة العمالة مشكلة اجتماعية كبيرة .

فكل من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، قد رأوا من دراستهم فى الأربعينات أن العمالة المهاجرة لابد لها من أن تتوحد ، وتستوعب فى الحياة المدنية (المدن) .

والتنمية الأساسية فى هذا المجال قد حدثت بين جماعة من علماء الاجتماع وجماعة من الأنثروبولوجيين ، وعملوا بين معهد "رودس – وليفنجستون" (Rhodes - Livingstone) . وقد ركز عملهم علي نوعين من العمليات المتصلة بعمليات : تأثير العمالة المهاجرة على البيئة الاجتماعية للمجتمعات الطاردة أو المرسلة – والطرق التى يحاول بها المهاجر أن يكيف حياته فى المدن ... وفى دراسة قام بها "واطسون" لمجتمع المامبوى (Mambwe people) فى كتابه (Tribal Cohesion in a Money Economy) بحث التغيرات التى أحدثها العمال المهاجرون في مجتمع المامبوى ، وخاصة فى التنظيم الاجتماعى ، وكذلك فى المؤسسات الإنتاجية .

أما "أودرى رتشاردز" (Audrey Richards) فى دراستها لمجتمع "بمبا" (the Bemba people) فى روديسيا الشمالية الخاصة بالأرض والعمالة والتغذية .

فقد أظهرت هذه الدراسة أن اختفاء الشباب من الرجال ، من الاقتصاد المحلى ، قد أدى إلى اضمحلال فظيع فى الانتاج . وبالتالى إلى فقر فى الريف ، وإلى مجاعة (starvation) .

وفى نهاية عمليات الهجرة درس "ميشيل" (J. CI Metchell) التنظيمات الاجتماعية للعمالة المهاجرة فى المدن . وفى مقالته الكلاسيكية : رقصة الكاليلا (The Kalela Dance) ، أظهرت الدراسة أنه بينما العمالة المهاجرة كانت تشير أو تنسب بعضها البعض بأسماء القبائل ، نجد أن ذلك له معنى مختلف فى المدينة عما كان لديهم فى الريف .

لقد أصبحوا نوعا من الاختزال للثقافات المختلفة بين مجتمع المهاجرين ، وقدموا نماذج للتفكير أو كما يقول خرائط عقلية (Mental maps) للإختلافات الحضارية الإجتماعية . ومع ذلك فالعمالة المهاجرة تحدد نفسها مثل (بمبا) أو (مامبوى) أو (هندية) أو (باكستانية) أو (أيرلندية) ، وجميعهم عمال ، ويمكن تحليلهم باستخدام مفهوم الطبقة ، ففى إطار ٣ – ٢ يخبرنا "فالدو بونز" (Valdo Pons) أن هناك شىء مما سبق فى زمان الاستعمار البلجيكى للكونغو.

إطار ٣ – ٢

القبيلة والطبقة فى المدينة المستعمرة : زائير

فى هذا المقتطف يلخص "فالدو" (Valdo) مشكلة مفهوم التقسيم الاجتماعى ، عند دراسة التحضر فى أفريقيا . وهو يدعونا لفحص العلاقة الهامة بين القبيلة والطبقة .

ففى كتاباته عام ١٩٦٩ عن هذا البحث الذى أجراه فى الخمسينات يقول : (الأسئلة المبدئية التى تلفت نظرى هو (القبلية) و (الطبقة) فى مدينة استانليفيل ... ويمكن توضيحها ببساطة بتخيل اثنين من الملاحظين أو المراقبين ، وتصرفهم فى زيارة عادية لجيرتين مختلفتين فى المدينة . فأحدهما يلاحظ أنه أخذ إلى منطقة حيث يوجد اتجاه ملموس أو واضح لأعضاء نفس القبيلة ، فهم يعيشون إلى جوار بعضهم البعض ، وقد لاحظ أن هناك وجودا قبليا متجاورا مع رضا ذاتى عن الحياة الاجتماعية . أما الرجل الثانى (observer)

فقد أخذ إلى جيرة حيث لم يكن يلحظ أى إشارة للإقامة العرقية وحيث يعيش كثير من الأعضاء الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة يعيشون جنبا إلى جنب فى معسكرات للإقامة ... وحتى فى بعض الأحيان ، فى مساكن أو منازل متشابهة .

وهنا كان الجميع يتحدثون باللهجة الفرنسية ، لهجة السواحلى ولينجوا . وقد رأى الناس يختلطون بعضهم البعض فى الأماكن العامة . وقد لاحظ نسبة ارتفاع الزواج المدنى ولا دخل للعشيرة فى ذلك ، وأن هناك جماعات الأصدقاء ، وهى تتجاهل الرسميات ، وتتكون من أعضاء مختلفين ، ومن قبائل مختلفة . ونجد أنفسنا نتساءل عن طبيعة هذه الإختلافات ، ونسأل كيف يعمل المبدءان الأساسيان ، القبلية والطبقة ، وكيف يعملان تلقائيا داخل نفس المجتمع .

(Pons, V., Stanleyville, Oxford University Press, 1969, pp.6 - 7.)

هذا السؤال الهام قد شرح بالنسبة لبريطانيا بواسطة كاتب آخر هو ايريك هوبزبوم (Erichobsbawm) الذى يقول : (إن جميع الطبقات العاملة فى المجتمع الواحد تميل إلى أن تكون غريبة النشأة ، ومتعددة الشخصيات ... فالخادم الهندى فى محل يعد نفسه لكى يكون عضوا فى الطبقة العاملة البريطانية ، وهذا بالنسبة للشخص الملون والهندى ... وطبقة السيخ ... والباكستانيون ... وبين هؤلاء تحدث زيجات وابناء وبنات تابعين سياسيين (Hobsbawn, E.T., Worlds of Labour, Weidenfield and Nicholson, 1984, P.49.) أما ما تحدث عنه كل من الكاتبين ، فهو عن العلاقة بين الطبقات (الموقع فى الإنتاج) ، وثقافيا (دينيا وعرقيا) كلها عوامل فى الحياة الاجتماعية . إنها مشكلة هامة لعلم الاجتماع .

إن الدراسة التقليدية لدراسة التحضر كجزء من عمل التنمية ، نجدها تركز على كيفية استيعاب وتكامل العمالة المهاجرة فى الحياة المدنية . وقد وصلنا إلى الكثير من الدراسات المفصلة ، والتى تعطينا معلومات عن المجتمع أتت من خلال هذه المدرسة البحثية . مثال ذلك ، ماكتبه "فالدو بونز" و "فليب مايرز" فى كتاب : (Townsmen or Tribesmen conservatism and the process of urbanisation in a South African city (Oxford University Press, Capetown, 1971) التى فحصت ودرست التنمية من خلال الاختلافات الاجتماعية الموجودة بين الجماعات القادمة من منطقة ريفية واحدة ، للعمل فى المدينة ، والذين

حاولوا بجهد جهيد للحفاظ على تقاليدهم بالرغم من أنهم تعلموا فى مدارس حديثة ، محاولين إعطاء الحياة طرقا مختلفة ذات معنى فى بيئة غريبة مختلفة . (أنظر إطار ٣ – ٣) .

إطار ٣ –٣

الحمر Reds والأوغاد (Rascals) والمهذب gentlemen فى جنوب افريقيا .

فى دراسة الاستقرار الريفى فى جنوب أفريقيا ، يوضح " أوكنيل" (O' Connell) فى كتابه ، كيف أحضرت العمالة المهاجرة ثقافات مختلفة للمناطق الزراعية . إنه يتحدث عن ثلاث مجموعات من الناس جميعهم من قبيلة "اكسيب" (Xesibe) ، ولكنهم يختلفون فى ثقافاتهم حسب استجابتهم لحياة المدينة .

هذه المجموعات الثلاثة أو الجماعات ، هى (الحمر ... وهم المتمسكون بالطريقة التقليدية للحياة ... ويعيشون فى اكسهوزا (Xhosa) ، ويدعون أو يسمون بالناس أو الجماعة الحمر (abantu ababomvu) ، إنهم المرجع أو الأساس للعادة التقليدية لصباغة شعورهم باللون الأحمر وكذلك ملابسهم باللون الأحمر ، ودهان أجسامهم باللون الأحمر . وهم عادة يمضون زمن طفولتهم ومراهقتهم المبكرة فى رعى القطعان من الحيوانات ، أما خبرتهم التعليمية فهى قصيرة ، ولا ينتظمون فى مدرسة إطلاقا . ويعيشون طبقا للمعايير التى تسمتد جذورها من دين الأجداد ، فسلوكهم تحدد بالتقاليد ، وينعكس ذلك فى احترامهم للأبوة والسلطة ، مع اهتمام شديد فى المعيشة كجماعات ، سواء فى الحياة العادية أو وقت الحرب ، ولهم تقاليدهم وموسيقاهم ورقصاتهم التقليدية ، ويشربون البيرة (الجعة) ، كما أن لهم تضحياته (Sacrifices) ...

"الأوغاد" (Rascal) هى ترجمة لمصطلح "iindlavini" أو شاربوا النبيذ ... فالحمر يفكرون أن المدرسة تعنى الناس المتعلمون أو الطبقة المتعلمة ، ويفكرون فى الأوغاد والمهذبين على أنهم خونة ...

فالأوغاد ينتمون إلى تنظيم يسمى ilitye (الحجر) (stone) عندما يكونون قد أمضوا العقد المبدئى للعمل ، وكلمة Ilitye ... هو تنظيم برلمانى حيث يقضى الأوغاد معظم وقتهم فى شجار مع الأوغاد من أحياء أخرى . والأوغاد ... يظهرون ويتصرفون مثل طلاب المدارس أحيانا ، ومثل التقليديين فى أحيان أخرى .

(المهذبون) "Gentlemen" هى ترجمة الاكسهوزا أمانين (Xhosa amanene) ... فهم يستنكرون العادات المشتركة ، واخلاق واتجاهات الحمر والأوغاد ، ويرون فى أنفسهم أنهم الطبقة المتحضرة بالمقارنة ... أما حياتهم الاجتماعية فتتركز حول المدرسة والكنيسة والبارات الموجودة فى المدن القريبة ، ويرجع ذلك إلى مؤهلاتهم التعليمية ، كما أن لديهم فرص الاختيار فى العمل الذى يرغبون فى أدائه

(O' Connell, M. C., Xesibe Reds, Rascals and Gentlemen at Home and at Work, in Mayer, p. (ed.) Black Villagers in an Industrial Society, Oxford University Press, Capetown, 1980, pp. 257 - 260.)

ومعظم هذه الدراسات استخدمت مفاهيم التكامل والاستيعاب ، لكى تفهم كيف أصبح الغرباء جزءا من حياة المجتمع الحضرى السائد (أنظر إطار ٣ – ٤) .

ويتيح هذا فرصة لنقدهم على أنهم قد فشلوا فى إعطاء وزن كاف للمدينة كمكان يعيش فيه المهاجرون الذين لهم آراؤهم ووجهة نظرهم فى المستقبل ، ورغباتهم فى متابعة اهتماماتهم .

وفى رأى "ماركس" إنهم يصنعون تاريخهم .

إطار ٣ – ٤ الاستيعاب والتكامل (Assimilation and integration)

إن مفهومى الاستيعاب والتكامل هما مفهومان هامان ، ومرتبطان بمجال علم الإجتماع فعلم اجتماع الأجناس (Race relation) أو السلالات القرابية فى المملكة المتحدة ، حيث على سبيل المثال ، نجد أن دراسة باترسون (Patterson's study) للمهاجرين الكاريبيين إلى المملكة المتحدة فى الخمسينات ، فى كتاب صادر عام ١٩٦٣ باسم (الغرباء السمر) "Dark Strangers, Tavistock, 1963" وقد ركز أيضا على التكامل والاستيعاب . أما فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فهناك رأى آخر مرتبط بنفس المشاكل ، ويركز على ما يسميه بـ (ثقافة الفقراء) المستمرة والحرمان فى مدن الأكواخ (shanty towns) فى كل من وسط وجنوب أمريكا .

وفى تقرير "أوسكار لويس" (Oscar Lewis) عن الحياة اليومية من يوم إلى يوم فى هذه المناطق المتخلفة ، فى كتابه (La Vida ASecker and Warburg, 1967) يقدم صورة مأساوية للإضطراب الاجتماعى والحرمان .

التحضر والتحديث :

إن أساس الدراسة عن المجتمع المحلى ، لم تكن محددة بوضوح فى حدود أى إطار عمل عريض للنظرية . لقد حاول "فريدمان" فى كتابه (Friedmann (Regional Development Policy : a case study of Venezuela, MIT Press, Boston, 1966) أن يجمع معا الفروض التى تساند أو تدعم هذا النمط من العمل . وقد عمل من خلال منظور التحديث الذى يوضح أربع مراحل لتطور المدينة "أنظر إطار ٣ – ٥" .

إطار ٣ – ٥ تطور المدن " Evolution of the city "

(١) الفترة الأولى فى بداية الاستعمار :
كثير من المجتمعات الريفية المستقلة ، حاولت أن تساند أو تدعم نفسها بإنتاج من أجل البقاء (subsistance) .

(٢) إقامة صناعات قليلة ومناجم ومزارع ذات مركز حضرى للإدارة ، مع ظهور مدن رئيسية ذات طابع اجتماعى واقتصادى إلى جانب شغلها بناء مكانى نو إقليمية كبيرة غير متساوية فى الدخل والخدمات .

(٣) انتشار المنتجات الصناعية والزراعة الحديثة ، مع ظهور المعارضة السياسية من المناطق المتمركزة حول قضايا عدم تساوى المناطق . ونشأت عن ذلك ، الحكومة المركزية ، كى تأخذ فى يدها تنمية السياسة الإقليمية ، لتعوض عدم التوازن . ومن ثم فقد حدث نمو كبير وعريض .

(٤) قد نما فى المرحلة النهائية مجتمع متكامل ، نو نمو اقتصادى ، ولم تذكر فيه عدم المساواة بين الريف أو المدينة ، ولكن ساد التكامل السياسى والثقافى .

هناك العديد من المشاكل فى نظرية "فريدمان" (Friedmann) :

(١) يقال ان التدخل الاستعمارى ، كان من أجل صالح الأهالى ، وإن المناطق ذات الكثافة السكانية القليلة ، تتميز بأنها مجتمعات على نطاق صغير ، وإنها مجتمعات لا تزال تنتظر التنمية . مثل هذا الرأى يعكس لنا بعض ملامح الخبرة الاستعمارية ، ولكنه قطعاً لا يعكس الحالات الرئيسية – الهند – غانا وبيرو ، لا يتفق معهم فى مثل هذا الرأى ، فيما قبل الاستعمار .

(٢) إن هذا الرأى يقلل خطورة تقييم دور الاهتمام الأجنبى ، قائلين بأن الاهتمامات الإقليمية ، يمكن أن تؤثر على السياسة المركزية ، وخاصة عندما تكون هذه الاهتمامات المركزية الحضرية ، أكثر من القوة الاستعمارية الأجنبية من الناس المستعمرين .

(٣) النموذج فى الغالب نموذج سياسى ، وقد فشل فى الاعتراف بأن السياسة الإقليمية والتنمية الحضرية ، يسودها ويسيطر عليها المستعمرون ، ويليهم فى السيطرة إلى حد ما ، الصفوة (elite) القليلة من الحضريين المحليين ، والذين استفادوا من الاستعمار .

(٤) ويُنظَر إلى الفقر على أنه نتيجة للمشاكل الفنية للتوزيع ، وليست نتاج الجماعة والطبقة المسيطرة ، والتى تهدف إلى الحفاظ على الأجور بمستوى منخفض فى المدن، وتكاليف الإنتاج الزراعى فى الريف .

(٥) وربما كانت أضعف النقاط للنظرية ، هى النقاط المستمدة من نظرية التحديث عامة . والتى ترى أو تفترض أن التنمية الحضرية فى دول العالم الثالث ، سوف تتبع نفس الطريق . وكما يقال نفس ما حدث فى الدول المتقدمة .

تحليل الماركسيين للتحضر :

إن النظرة المقابلة التى استمد منها علماء الاجتماع دراساتهم عن مشاكل الحياة الحضرية ، تنبع من الماركسية ، والتى تؤكد على العلاقات الطبقية والصراع والتناقض والاستغلال .

وإذا أخذنا بهذه النظرة ، وهذه المفاهيم ، سنجد تعليلات كثيرة للنمو الحضرى والإقليمى.

إن أصل هذا المدخل البعيد يمكن اقتناؤه فى أحدى مؤلفات القرن التاسع عشر ، ومكتوبة عن التحضر فى مؤلفات "إنجلز" (Engels) ظروف الطبقة العاملة فى انجلترا (Black well, 1958) وهى دراسة عن ما نشر سنة ١٨٤٤ بمدينة مانشستر ، وفى هذه الدراسة ، يرى "إنجلز" (Engels) كيف تكون حياة الطبقة العاملة فى مدينة مانشستر فى القرن التاسع عشر ، ولابد أن تفهم فى ضوء العلاقات الآتية :

توسع التجارة والصناعة وغزو جميع الأسواق الخارجية غير المحمية ، وسرعة التوسع

فى العاصمة والثروة القومية (Engels, F., 1958, p. 15.)

هذه التغيرات قد شملت العاملين فى المدن ، فاقدة ملكيتهم الخاصة للآلات ورأس المال ، وانتقالهم إلى فقر شديد ، يناقض بوضوح الثراء الشديد الذى يخلقونه .

إن الفقر الحضرى عند "إنجلز" (Engels) يرجع إلى مظهر واحد ، هو العلاقات الشاملة بين الطبقات أثناء فترة التنمية الرأسمالية .

إن الصورة التى يرسمها لظروف الطبقة العاملة ، تشبه إلى حد كبير تقرير عن الحياة فى مدن الأكواخ ، أو العيش فى دول العالم الثالث الآن . (أنظر إطار ٣ – ٦) فيقول :

إن الغالبية العظمى لدى سكان المدن الكبيرة هى العمال ... فالعمال لا يملكون أى ثروة ، والجميع يكدحون فى طلب لقمة العيش . وانحدر المجتمع ، وتكون من مجموعة متدهورة من الأفراد الأنانيين ، ولا أحد يهتم بالعمال وأسرهم ... وإن أكفأ العمال مهددون دائما بفقد حياتهم، وهذا يعنى بالموت جوعا ...

إن القطاع السكانى الذى تعيش فيه الطبقة العاملة ، دائما ماينشأ بشكل سيء فى المدن ، إذ أن مبانيها أو منازلهم قد أقيمت بأقل التكاليف ، وبحالة سيئة لا يرجى من إصلاحها. كما أن هذه المبانى سيئة التهوية ورطبة وغير صحية ... أما لباس العمال ، فإنه غير كاف لستر أجسامهم ، بل يخيل للمرء أن ثيابهم مهلهلة . ووجبات العمال دائما غير مفيدة للجسم ، وغير صالحة للأكل . (Engels, F., 1958, pp. 86 - 87) .

إطار ٣ – ٦ "الاسميرالدا" ، "بورتوريكو" (La Esmeralda, Puerto Rico)

هناك مصطلحات كثيرة تطلق على الأحياء الفقيرة (slums) والتى يسكنها الفقراء فى دول العالم الثالث . وإفريقيا تسمى مدن الأكواخ (shanty towns) ، أما فى السودان فإنها تسمى مدن الكارتون (cardboard cities) وفى أمريكا اللاتينية تسمى (favelas) . وفى شمال افريقيا تسمى مدن الصفيح ، وفى الهند (bustees) ويصف إحداها "أوسكار لويس" "Oscar Lewis" فيقول :

مع أن حى "الاسميرالدا" (La Esmeralda) يبعد فقط عشرة دقائق من قصر الحاكم فى قلب "سان جوان" (San Juan) إلا أنك تلمس انها اجتماعيا على الهامش للمدينة ، وهناك حائط يقف فاصلا بينها وبين المدينة ... وبين البحر ، فالمبانى رثه قديمة ، والسكان فى حالة سيئة ، إلى أن تصل إلى الشاطىء نفسه فنجد الناس يعيشون فى مبان خربة .

ولكى تعيش على الشاطىء ، فإنك دائما معرض للخطر ، حيث يمكن أن يجرف المد المنازل ، إلى جانب أنه أقذر مكان فى الاسميرالدا .

وهناك كابلات الكهرباء المحطمة ، إلى جانب المجارى المتجهة إلى البحر . ويعج الشاطىء بالذباب والقانورات والزبالة ، والفضلات الآدمية ، وزجاجات البيرة والأسرة المحطمة وقطع من الحشب العفنة ...

ومع ذلك فإن سكان أسميرالدا يستخدمون الشاطىء للاستحمام والمعاشرة الجنسية والصيد ، وعند الجوع يجمعون القواقع والكابوريا . كما يربون الخنازير على الشاطىء بسبب وفرة الزبالة .

(Lewis, O., La vida, Secker and Warburg, 1967, p. 37.)

ويناقض هذا الموقف الوصف الحالم لريف ما قبل التصنيع فى القرن التاسع عشر ، فيصف "إنجلز" (Engels) قائلا : الزوجات والبنات يغزلن الصوف ، الذى يقوم بنسجه الرجال، أو يبيعونه لمن ينسجه . ومعظم عائلات النساجين ، يعيشون فى الريف ، بالقرب من المدن ويكتسبون الكثير الذى يكفى لمعيشتهم . وفى تلك الأيام فإن الطلب من السوق المحلى على الملابس كان منتظما ومرضيا . (Engels, F., 1958, p. 9) إن النظريات الماركسية الحديثة عن التحضر (unbanisation) تتبنى مشكلة البناء العريض أو الواسع (The broad structural) لفهم المدينة فى العالم الثالث ، ناظرين إليها على أنها تابعة تنمويا ومتخلفة .

فالهجرة الزراعية إلى المدن هى نتاج سياسة القوى الاستعمارية ، وتهدف إلى نقل العمالة الريفية الرخيصة إلى المناطق الحضرية ، وغالبا من خلال الإكراه والقوة . والوسائل المتبعة هى العمل الإجبارى والضرائب على المنازل والرأس ، والتى لابد من دفعها نقدا . والنقد الفورى يتأتى عن طريق بيع إنتاج المحاصيل نقدا ، والعمل فى مزارع المستوطنين (كما هو متبع في وسط وجنوب إفريقيا وأجزاء فى أمريكا اللاتينية) أو العمل فى المناجم أو المدن

الصناعية . والخط الدفين السائد فى عملية التحضر ، هو استمرار حاجة الرأسمالية إلى تزايد أو تراكم رأس المال .

وهذا انعكاس للتنظيم المكانى للمدينة ، بمركزها الغنى ، وعلى الطرف الآخر توجد مدن الأكواخ . وتختلف الدخول فى المناطق على نفس النمط الموجود بين المدينة والريف ، وهو نتاج للشكل غير المنتظم للتنمية الرأسمالية فى دول العالم الثالث .

ويزودنا "كاستيل" (E.Castells (The Vrrban Question: a Marxist Approach, Edward Arnold, 1977) بنموذج على النقيض لنموذج "فريدمان" (Friedmann) ، فهو يرى أنه هناك ثلاث مراحل فى عملية التحضر فى دول العالم الثالث . (انظر إطار ٣ – ٧) .

إطار ٣ – ٧

نموذج للتحضر فى دول العالم الثالث

(A model of Third World urbanisation) كاستل (Castell) والثلاث مراحل :

(١) إن فائض الإنتاج فى فترة الحكم الاستعمارى كان يباع وينقل عن طريق شركات أجنبية ، تخضع للنفوذ السياسى ، ولسياسة الاستعمار والاقتصاد الوطنى .

وعلى سبيل المثال : التحيز ضد الصناعات المحلية فى صالح المنتجات التى تقدمها الصناعات فى المجتمعات المستعمرة . وخير مثال على ذلك ، دمار صناعة النسيج فى الهند خلال فترة الاستعمار .

(٢) فى حالة استقلال البلد سياسيا ، فإن فائض الإنتاج دائما ما يؤخذ من خلال ميزان تجارى غير متكافىء ، حيث يسيطر على الأسعار شركات أجنبية تسيطر على الصادر والوارد ، وتستغل التجارة لصالحها .

(٣) المرحلة الأخيرة هى فترة الاحتكار الصناعى ، والسيطرة الاقتصادية حيث توجد شركات متعددة الجنسيات ، وبعضها لها ميزانيات أكبر من الدولة نفسها التى تعمل بها ، فتسيطر على نطاق واسع فى مجال الصناعة والقطاعات الزراعية ، والتى ربما تكون قد كونت شبكة من خلال شركات فرعية يمتلكها حاملو أسهم محليون ، أو من خلال البنوك ، أو من خلال ترتيبات مالية أخرى ، أو ممن خلال إجراءات داخلية مثل نقل أو تحريك الأسعار .

وفى هذه المرحلة ، فإن الفائض يستخرج عن طريق إعادة الربح ، ودفع الضريبة أو التراخيص الحكومية .

وإذا مانظرنا إلى المجتمع الحضرى من هذا المنظور ، نجد أن المشكلة ليست مسألة "توافق" أو "استيعاب" أو "تكامل" . وإنما هى عبارة عن العلاقة بين الطبقات والسياسة الطبقية فى البيئة الحضرية . ومن خلال هذه النظرية ، نرى المشكلات الاجتماعية كالفقر وعدم تكافؤ الرعاية الصحية ، والتغذية السيئة والإسكان السيء هى مظهر العلاقات بين الطبقات ، وهى القضايا التى تتصارع عليها الطبقات وتكون المعارك السياسية .

هل يستبعد الناس النظرية ؟ .

إن تفسير الماركسيين للحياة الاجتماعية الحضرية والتحضر ينتقد على أنه تغالى فى الحتمية أو العوامل المسيطرة . وهذا يعنى أنه لا يعطى الوزن الكافى أو ينقص من قيمة سكان المدن لكى يستقلوا ويعبروا عن طاقاتهم . بينما يرى مدخل التحديث (modernisation approach) أن الحكومات ، (سواء كانت مستعمرة أو مستقلة ، وبالرغم من أنها قد تكون غير كفء فنيا) ، يرى أن الحكومات تهتم بما يهم الطبقة ، ولا تهتم بما يهم الطبقات العريضة الفقيرة فى الريف والحضر .

وهناك خط متوازى مع الأجزاء الخاصة بالنظرية الماركسية . ويمكن أن تتذكر ذلك فى المقتطف السابق ذكره "لأنجلز" ، الذى رأى أن المجتمع الحضرى هو عبارة - "يتكون من مجموعة من الأفراد الأنانيين" - إنه مظهر للاغتراب ، وهو المفهوم الذى استخدمه "ماركس" و"أنجلز" لوصف بعض مظاهر السلبيات فى المجتمع ، واختفاء القيم الاخلاقية مع نمو المجتمع الصناعى الحضرى . إلا أن "دوركاييم" قد استخدم المفهوم "أنومى" (Anomie) "أو الشاذ أو المخالف للقاعدة" ليصف نفس الظاهرة . ولكن ماهو مهم فى هذه الملحوظات ، هو ما يقال عن سلبية وعدم فاعلية المناطق الحضرية الفقيرة .

ولكن يبدو أن هذه ليست القضية . ففى انجلترا ، عندما كتب "أنجلز" عن الطبقة الإنجليزية العاملة :

(E. P. Thompson in his The Making of the English Working Class (Penguin, 1978) .

فقال : نرى فى إنجلترا كيف كانت الطبقة العاملة تأخذ المبادرة فى الناحية الثقافية والتعليمية والمالية (من خلال تبادل المساعدات عن طريق المؤسسات) وكذلك من خلال السياسة

(وذلك عن طريق وجود الغرف التجارية) جميعها كانت تهدف إلى تحسين الكثير . وإن كثيرا ما يحدث نفس الشيء ويصدق فى المدن الفقيرة فى دول العالم الثالث . وهناك الكثير من (المؤسسات التطوعية) ، والكنائس والنوادى الاجتماعية وخاصة من أعضاء رودس (Rhodes) – ولفنجستون (Livingstone) فالمؤسسات على سبيل المثال تساعد على التوافق مع حياة المدينة الجديدة ، والجميع ينظر إليها على أنها أشكال من التنظيمات فى الظروف المناسبة ، وربما تستمر وتصبح قوة سياسية ذات مغزى .

إن هذا الرأى له وزنه أو يتعرض له "بونز" (Pons) ، وقد وجد كثيرا من الاهتمام به ولمختلف أنواع النوادى ، التى تكونت فى المدن الأفريقية . إن فى مقدمة الكتاب الذى يعالج كيفية تحضر الناس ، وكيفية استيعاب هذا المفهوم وقياسه ، نجد صورة رائعة، فهو يعرض أو يظهر صورة أعضاء لجنة (رابطة المتعلمين الكنغوليين) ومعهم رئيس اللجنة الأوربى . ويشار إلى هؤلاء الناس بأنهم (ثمرة التطور) ، وهم الذين تطوروا ثقافيا بمستوى يسمح لهم بتقييد الزيادة فى المجتمع المستعمر ، عن طريق بلجيكا . وعلى يمين الصورة نرى "باترس لومبا" (Patrice Lumumba) الذى أصبح رئيس الجمهورية الكنغولية المستقلة .

الطبقة والثقافة فى مدن العالم الثالث

إطار ٣ – ٨

التحضر فى الدول المتقدمة (Urbanisation in the developing world)

نجد أن معظم الناس فى الدول المتقدمة ، يسكنون المناطق الحضرية . وفى عام ١٩٢٠ كانت النسب التالية منهم فى إفريقيا ٨ . ٤٪ من السكان و ٧ . ٥٪ فى جنوب شرق آسيا ، و٢ر٧٪ فى شرق آسيا ، ونسبة ٤ . ١٤٪ فى أمريكا الجنوبية . وكان عدد الناس يبلغ حوالى ٢٠ ألفا من المواطنين أو أكثر فى الحى . ثم زادت هذه النسب عام ١٩٥٧ على الترتيب ١ر١٨٪ ، ٤ر١٧٪ ، ٦ . ٢٣٪ ، ٥ . ٤٠٪ .

وهناك خاصتان تستحق الانتباه . فهناك أولا اختلافات كبيرة بين الأقطار الصغيرة وبين قارات العالم المتحضر من حيث النسب ومدى التحضر . وثانيا أن ازدياد التحضر كان بشكل مستمر ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، إلا أنه كان تزايد فى معظم الدول عقب الحرب العالمية الثانية .

(Roberts, B., Cities in Developing Societies, in shanin, T. and Alavi, H. (eds.), Introduction to the Sociology of Developing Societies, Macmillan, 1982, p. 367.)

مدينة مكسيكو (Mexico City) هى إحدى أكبر المدن ازدحاما فى دول العالم الثالث ، وربما كانت الأكبر لأن تعداد سكانها كان حوالى ١٦ مليونا ، وقد يصل إلى ٢٥ مليونا تقريبا فى نهاية هذا القرن . وأصبحت الهجرة الآن إلى مثل هذه المدن فى تناقص . ويمكن لنا القول بأن نسبة ٣٠٪ من سكان دول العالم الثالث يسكنون المدن ، وربما لا نتوقع زيادة فى هذه النسبة قبل منتصف القرن التالى .

إن المصدر الرئيسى لزيادة سكان الحضر ، إنما يأتى من داخل المدن . فالنسبة ٣٠٪ على الأقل من الأماكن ، تعد ذات أهمية . أما السرعة والحركة فى المدن ، تزيد من سرعة انتشار الأفكار ، حيث تنتقل الشائعات ، ويخرج السكان إلى الشارع فتقع الإطاحة بالحكومات (أنظر إطار ٣ – ٩) .

إطار ٣ –٩ أسعار الطعام ومشاكل المدنية (food prices and urban riots)

لقد أطاحت الجماهير بحكومة السودان فى ابريل عام ١٩٨٥ . وامتلأت شوارع الخرطوم والمدن المجاورة لها بالمتظاهرين من جميع قطاعات المجتمع ، فمنهم مدنيون ومدرسون إلى عمال اليومية ، وكان منهم الأطباء . ورفض البوليس من ضباط وعساكر إطلاق النار على المتظاهرين . والشرارة التى انطلقت وسببت كل هذا ، هى ارتفاع سعر الخبز ، لأن الجهات التى كانت تقرض الحكومة السودانية طالبتها رفع الدعم عن رغيف الخبز .

وليس هذا مثالا فريدا ، بل كانت هناك مظاهرات مشابهة ، ولنفس السبب حدثت فى مصر وتونس والمغرب فى السنوات الأخيرة . ودائما ما كان سكان المدن تدخل فى مواجهة مع الحكومة . وإذا كنت تعيش فى المدينة ، فإنك تعتمد دائما على السوق كلية فى دخلك وطعامك ومأواك . فمثلا عندما ارتفعت الأسعار فى السودان ، كانت هناك الاضطرابات ، وردود الفعل الحادة والعنف الواضح للتعبير عن عدم الرضا .

إلى أى مدى يمكن أن ننظر إلى هذه الأحداث على أنها "أحداث طبقية" ؟ (class action) لقد رأينا أن الناس فى المدن يعيشون العديد من أنواع التطابق أو الاندماج العاطفى

(انظر إطار ٣ – ٢) والطبقة إحداها . ومن خلال الاجتماع الماركسى ، نرى أن الطبقة ينظر إليها على أنها العلاقة بين وسائل الإنتاج . فالناس مقسمون إلى البروليتاريا "أو الطبقة العاملة" والبرجوازية "أى أصحاب المصالح المادية" والموظف أو المستخدم (employed) والمستخدمين . أما فى دول العالم الثالث فمن الصعب الحصول على وظيفة رسمية فى مصنع أو منجم أو مكتب ، كما سنشاهد فى الفصل الرابع .

إن مدن العالم الثالث تختلف عن مثيلاتها فى أوربا وأمريكا الشمالية ، بأنها لا تقوم على تنمية صناعية واسعة . إن كثيرا من الناس يمضون حياتهم فى وظائف عادية فى قطاع الخدمات ، ويعملون بقدر استطاعتهم كالآلات ، وينظفون الأحذية ويغسلون السيارات ، ويبيعون سجائر ، وشحاذين أحيانا وبائعات هوى (أى فى الدعارة) . وهذا النوع من الاستخدام / والبطالة يسمى "قطاع غير رسمى" . وفكرة القطاع غير الرسمى مشروحة فى إطار ٣ – ١٠ .

إطار ٣ – ١٠

القطاعات الرسمية وغير الرسمية فى كينيا

(formal and informal sectors in Kenya)

لقد درس "جون ويكس" (John Weeks) القطاعات غير الرسمية فى كينيا فى السبعينات . وهو يكتب عنها كما لو كانت كلها مكونة من الرجال ، ولكن فى الواقع كان هناك نساءاً كثيرات ، يعملن فيها لدعم أسرهن ، وهو فى كتابته يقدم وصفا واضحا . "إن الأساس فى هذا الانقسام الرسمى وغير الرسمى ، يرجع إلى علاقات النشاط الاقتصادى للدولة . والقطاع الرسمى هو ما يسمى بالحديث "modern" ، ويشمل أصحاب رءوس الأموال والمشاريع والمؤسسات ، ورجال الأعمال الرأسماليون يتبعون القطاع الرسمى على أوسع نطاق ، ويستخدمون رأس المال المكثف والآلات المستوردة ، ويعتمدون على نظام العمال أصحاب الأجر اليومى . أما القطاع غير الرسمى فهو صغير ويستخدم العمالة المتوفرة والمكدسة والوسائل المحلية ، ويقوم على أساس العمالة الأسرية والعملاء والعمال ذوى الحرف ... ومن خلال الضرائب والحصص تحمى الدول المنتجين لبضائع معينة من المنافسة الأجنبية ... وقد يوصف القطاع غير الرسمى فى كينيا بأكثر من ... غياب من تفضلهم الدولة . وفى كثير

من الأحيان تتعرض للاضطهاد وعدم التشجيع . وعلى سبيل المثال ، فإن النجار الصغير غير قادر على التوسع لعجزه المادى ، وعدم وجود قروض ميسرة ، أو تبادل مع الخارج ، وعدم وجود الخبرة الفنية . وربما يكون أيضا غير قادر على استخراج تصريح للعمل ، ويعمل منتظرا البوليس يغلق له دكانه فى أى لحظة ، وإذا ما طلب قرضا من الحكومة ، فربما يتأخر شهورا فى استلامه ، لان مستويات العمالة والقروض قائمة على التخصصات الموجودة فى انجلترا ، وبعد جهود كبيرة تعطى الآلات والتدريب .

(Weeks, J., Imbalance and the "Employment Crisis" in Kenya, in Oxaal, I., Barnett, T., and Booth, D., Beyond the Sociology of Developmnt, Routledge and Kegan Paul, 1975, p. 89 .)

وفى بعض دوائر أو فترات التخطيط (planning circles) ، لم يكن القطاع غير الرسمى كمشكلة ولكن كإمكانية . فيجب على الملتزمين الالتزام بالمواهب التى تقدرها السياسة الحكيمة ، فتشجع الناس على الإسهام فى التنمية . ومن الناحية الأخرى ، فإن المفهوم قد تعرض كثيرا للنقد على أنه عام للغاية ، لأن هناك نقط غامضة تخص الاختلافات الكبيرة ، وعلى سبيل المثال ، مركز المتسولين وقطاع الحرفيين الصغار . وقد لوحظ أيضا وجود العمالة المختلطة فى القطاع غير الرسمى ، فهناك أناس يؤدون أعمالاً مختلفة فى أوقات مختلفة فى اليوم الواحد وفى الأسبوع وفى الشهر أو فى السنة ، وليست مقصورة على مدن . فهى توجد أيضا فى المجتمعات الريفية . (أنظر قراءة ١ ، جزء ٩) .

ومن اتجاه آخر ، وجد أن المصطلح يخفى وجود العلاقات الطبيعية بين الطبقات ، وأن القطاع غير الرسمى هو المكان الذى يتواجد فيه العمال الرخيصة غير المستخدمة ، وبعض الحرفيين (وينتقل بعض الناس أحيانا من حرفة لأخرى) والتى تواجه قوى الشركات الكبيرة والدولة .

وهذا يعيدنا مرة ثانية إلى السؤال عن كيف وإلى أى مدى نستطيع أن نتحدث عن الطبقات والحركة الطبقية فى مدن العالم الثالث : إننى اعتقد أنه من الصعب التعميم ، ففى بعض الأحيان يتحد الناس للدفاع عن مصالحهم كطبقة ، وربما يأخذ هذا شكل الإتحادات التجارية أو الاشتراك فى الإضرابات . وعندما يحدث ذلك ، وتتوحد الطبقة وتتحد مع طوائف أخرى أو ثقافات فرعية ، فإنه من الصعب التكهن به . وكما رأينا فى حالة اضطرابات الطعام

(إطار ٣ – ٩) فإنه دائما يحدث ، ودائما تركز على الدولة كما اقترح "ويكز" (Weeks) فى إطار (٣ – ١٠) فغالبا تكون منحازة ضد فقراء المدينة ، ويمكن وصفها فى إطار (٣ – ١١) .

إطار ٣ – ١١

يقظة الطبقة فى مدينة آجيج بنيجيريا (class consciousness in Agege : Nigeria)

درس "أدريان بيس" (Adrian Peace) جماعة من عمال المصانع فى مدينة آجيج (Agege) وهى ضاحية صناعية لمدينة "لاجوس" (Lagos) فيقول : إن جميع العمال دائما يتذمرون ضد الرفاهية والثروة التى تمتلكها القلة بالمقارنة لحالة الفقر التى يعيشونها ... ومن المتوقع فى بعض أوقات الصراعات الصناعية والسياسية أن يبدو الظلم واضحا وكثيرا ويبدو كذلك عدم المساواة ، فيصبح الأساس الرئيسى والذى يبرر تحدى العمال للسلطة ودوائر الحكومة ، وتتولد العداوة ضد النظام السياسى ، وتنتشر بين المستغلين فى العمل ، والذين يوكونون الأغلبية فى مدينة مثل "آجيج" (Agege) ، وبين عمال المصانع يتواجد زملاؤهم من المدينة ، وحائكوا الملابس وصغار التجار والحدادون والميكانيكيون والسائقون والنجارون . والمرء دائما يواجه تقييما عدائيا كى ترتكز الثروة الطائلة والقوة فى أيدى أقلية متميز .

(Peace, A. choice, Class and Conflict, Harvester Press, 1979.)

وهناك عامل مهم يمنع تنمية الطبقة فى دول العالم الثالث ، أن أهل المدن يحتفظون بعلاقة وثيقة مع المناطق الريفية ، ولقد رأينا شيئا من ذلك مع الحمر . والمهذبين (إطار ٣ –٣) حيث يجمع كثير من الرجال بين الوظيفة فى المدينة والحياة فى الريف . وهذا واضحا فى جنوب افريقيا من خلال نظام التفرقة العنصرية . ولكن فى أماكن أخرى ربما يمضى الناس جزء من السنة أو عدة سنوات فى المدينة وفى كلتا اللحالتين فإن هجرتهم عملية معقدة والتى تربط المدينة بالريف فى كثير من الطرق من الناحية الاقتصادية والثقافية ، وسف نوضح ذلك فى الفصل الخامس حيث نوجه اهتمامنا إلى التصنيع فى دول العالم الثالث .

obeikandl.com

الفصل الرابـع

التصنيع

علم الاجتماع والتصنيع :

لقد رأينا فى الفصل الأول أن الصناعة هى إحدى المشكلات الأساسية لعلم الاجتماع ، وإنها تحظى باهتمام علم اجتماع التنمية . وهناك كثير من الانقسامات أو التفريعات ، أزواج من التناقضات أو التضادات ، والتى توجد فى محاولة الكتابة لعلم الاجتماع لوصف الحدود بين الصناعة والمجتمعات قبل الصناعية . ومن الكتُّاب من علماء الاجتماع من كتب عن المجتمع قبل الصناعى مثل "هنرى مين" (Henry Maine) (١٨٢٢ – ١٨٨٨) ، ومن خـلال "دوركـايم" و "تونيز" إلى كتُّاب أكثر حداثة مثل "ردفيلد" (١٨٩٧ – ١٩٥٨) و "إتزايونى" و "أيزنستاد" (فى كتاباتهم فى الستينات والسبعينات) من القرن الحالى ، حيث كانت محاولاتهم لوصف سمات المجتمع الصناعى والعمليات التى من خلالها يحدث الانتقال من مجتمع ما قبل الصناعة إلى مجتمع صناعى .

وفى حالات كثيرة نجد أن السمات التى قيلت لتصف مجتمع ما قبل الصناعة ، كانت قائمة على الغموض والمعتقدات بأنها تقوم على البحث والدراسة التاريخية العلمية . وبنفس الطريقة ، حددت صفات بعينها كمقاييس هامة للمجتمع الصناعى . أما المجتمعات الحديثة هى مجموعات منتقاة . وإحدى هذه السمات هى التميز بين الدول المتقدمة عن الدول المتخلفة . وهو تواجدها – التصنيع – فى الأولى وغيابها فى الأخيرة . وهذا يستدعى أن نكون أكثر وضوحا فيما نعنيه بالتصنيع (انظر إطار ٤ – ١) .

الصناعة والمجتمعات الصناعية :

إطار ٤ – ١ التصنيع :

"إن مصطلح التصنيع يعنى الإشارة إلى مظهر للتنمية الاقتصادية ، حيث يتبادل كل من مصادر رأس المال والعمل ، والتحول من الأنشطة الزراعية إلى الأنشطة الصناعية ، وخاصة القائمة على التصنيع الآلى . وقد صاحب ذلك نهضة فى النسق الصناعى ، كما لازم ذلك

زيادة فى التحضر والحركة والهجرة من الريف . وهذا الوصف لطبيعة العملية نجده فى :

(Industrial and Deindustrialisation, John cornwall, in The social Science Encyclopaedia, Kuper, A. and J., (eds.), Routledge and Kegan Paul, 1985 P.386.)

بالاضافة إلى ذلك هناك سمة هامة للإنتاج الصناعى ، هى تقسيم العمل والنظام الذى يفرض نفسه على العمل ، وقد استخدم "آدم سميث" (Adam Smith) رائد الاقتصاد (١٧٢٣– ١٧٩٠) فى القرن الثامن عشر ، حيث استخدم نموذج صناعة الدبوس ليوضح فكرته ...

إن الطريقة التى بها ينفذ هذا العمل طريقة تجارية غريبة ، فلا يؤدى العمل ككل ، ولكنها تقسم إلى عدد من الفروع ... فهناك عند صناعة الدبوس من يسحب السلك وآخر يفرده وثالث يقطعه ورابع يدببه وخامس يعد رأسه ... ثم يوضع فى الورق ، إن تجارة الدبابيس تشبه هذه الطريقة ، فهى مقسمة إلى حوالى ثمانى عشرة عملية واضحة ... فكل شخص ... يؤدى عشرة أجزاء فى حوالى ٤٨٠٠٠ دبوس ، أى أن الشخص وحده ينتج حوالى ٤٨٠٠ دبوس فى اليوم . ولكنها إذا أتمت منفردة ومستقلة وبدون توجيهها إلى هذا العمل الغريب والمعقد ، فسوف لا ينتج أى شخص منهم أكثر من ٢٠ دبوسا فى اليوم .

(Smith, A. The Wealth of Nations, Penguin, 1973, first published 1773)

وفوق كل ذلك ، يجب أن نلاحظ أن التصنيع يأخذ الإنتاج من البيت إلى المصنع .

إن كل المجتمعات البشرية تنتج أشياء من أجل استخدامها ، ولديها الحرفيون والعمال المهرة المتخصصون . إلا أننا لا نستطيع الإشارة إليهم على أنهم عمال الصناعات ، كما أن مجتمعاتهم لا يمكن أن نسميها صناعية . ومن الجانب الآخر فحتى المجتمعات الغربية ، ومجتمع الإتحاد السوفيتى وأمريكا الشمالية فجميعها ليست مجتمعات صناعية ، إذ أن هناك قطاعات زراعية هامة وكبيرة . ويمكن مقارنة الإنتاج الصناعى بالإنتاج الحرفى ، فى ضوء المصطلحات الخاصة بهذا المستوى . فاستخدام الأعداد الكبيرة من العمال واستخدام الآلات ، نتيجتها عبارة عن تركيز جغرافى وانتاج للأسواق الكبيرة .

لاحظ أن هذه السمات بعد الانتاج الزراعى (كالميكنة الزراعية والمزارع الكبرى) يمكن اعتبارها انتاج صناعى . ولكى نحدد مستوى المجتمع الصناعى ، يمكن لنا أن نسأل عن مصدر الدخل القومى الناتج عن الانشطة الصناعية .

ولقد وضعت الأمم المتحدة جدولا يحدد المستوى العالمى للتصنيف الزراعى ، وبناء عليه تحدد مستوى المجتمعات الصناعية (انظر إطار ٤ – ٢)

إطار ٤ – ٢ المستوى العالمى للتصنيف الصناعى

١ – الزراعة : الزراعة
الصيد
استغلال الغابات
صيد الأسماك

٢ – الصناعة : التعدين والمحاجر
التصنيع
الكهرباء
الغاز
المياه
البناء

٣ – الخدمات : تجارة الجملة والتجزئة .
المطاعم والفنادق .
النقل والتخزين والمواصلات
التمويل والتأمين والملكيات الحقيقية والأعمال الحرة .
المجتمع والخدمات الإجتماعية .

إن التصنيفات الواردة فى إطار ٤ – ٢ ليست واضحة . وعلى سبيل المثال ، ربما نعتقد أن العمليات الخاصة بالمنتجات الزراعية ، يجب أن تدخل فى الزراعة أو خزانة الإنتاج الصناعى . ويتوقف هذا على كيف تحدد أو تعرف المجتمع الصناعى . (انظر إطار ٤ – ٣) .

obeikandi.com

إطار ٤ – ٣ المجتمع الصناعى : تعريف

من أجل أهدافنا ، فإن السمة الرئيسية للمجتمع الصناعى تبدو أنها النمط التكنولوجى المستخدم فى الإنتاج ، والمقياس أو المستوى للتنظيم العمالى وعلاقته بالتكنولوجيا ، ومدى التخصص وتقسيمات العمل بين الأجزاء المختلفة لعمليات الإنتاج .

إن ظهور هذه السمات للتصنيع والمجتمع الصناعى أدى إلى تغيرات عامة فى التنظيم الاجتماعى – إن هذا التغير الذى أشار إليه "تونيز" (Tonnies) فى توضيحه بين "جيمينشافت" أى المجتمع البدائى أو البسيط و "جيزلشافت" (Gemeinschaft and Gesellschaft) أى المجتمع المعقد أو المتقدم "ودوركايم" (Durkheim) فى توضيحه الفرق بين التضامن العضوى والميكانيكى ، كانوا يحاولون جذب الانتباه إلى هذه الظاهرة . إن هؤلاء الكتّاب ، ما أشاروا فقط إلى التغيرات الفنية والتكنولوجية بل وفوق كل شىء أشاروا إلى التغيرات التى اتبعها الناس فى رؤيتهم لأنفسهم ورؤية الآخرين ، وهو تغير فى الإطار الأيدولوچى ، أو إذا أردت أن تستخدم مصطلح "ڤيبر" (Weber) "معنى الموقف" أو بكلمات أخرى ، التغيرات الثقافية . حقا إن مبررات "ڤيبر" عن العلاقة بين تنمية معتقدات البروتستانت وآراء المجتمع الرأسمالى ، يشير إلى التغير فى الاتجاهات وتوقعات الناس فى المجتمعات الصناعية .

وقد لاحظ "فيبر" (Weber) أن الرأسمالية تتطلب وتشجع وتعمل أفضل إذا ساد الاعتقاد فى التخطيط والكفاءة والمهارة فى الحسابات على وجه الخصوص ، وعندما يحاول الناس التعليل للإمكانيات فى المستقبل وتأثيرها على الأحداث الحاضرة .

ولذلك نجد أنه من المتوقع أن اقتصاد بلد مثل زامبيا ، يكون اقتصادها ودخلها القومى مستمدا من القطاع الصناعى – طبقا لتصنيف الأمم المتحدة – وعلى خلاف ذلك إذا ما تحدثنا بلغة علم الاجتماع ، فهى إلى الآن لا تعتبر مجتمعا صناعيا لأن غالبية الشعب لم تمارس تجربة الانتقال الأيديولوجى . وفى الواقع فهى كغيرها من الفئات الاجتماعية الكثيرة .

ونحن هنا مهتمون بأسئلة ذات أهمية بالدرجة التى يتميز بها أى مجتمع من سيادة الأنماط الصناعية المنتجة ، والمعتقدات ، ونوعية العلاقات .

وهناك سمات للمجتمع الصناعى ، وهى صفات المجتمع الحضرى . وبالرغم من أنها ليست قاصرة على المجتمع الحضرى . فالزراعة يمكن أن تنظم على أنها صناعة بتقسيم العمالة والعمل على نطاق واسع والعمال الأجراء والمديرين .

ونحن لدينا مصطلح يستخدم يوميا فى الحديث عندما نتحدث عن لغة "المصانع الزراعية" أو التصنيع الزراعى . (أنظر إطار ٤ – ٤ كمثال على التصنيع الزراعى) كما نلاحظ أيضا وجود أنماط للقياس والتى تستخدم لوصف "المجتمع الصناعى" وليست قاصرة على واحدة فقط ولم يكن من الضرورى أن يتغير الجميع فى نفس الإتجاه أو نفس المعدل .

إطار ٤ – ٤ مزرعة جماعية فى الاتحاد السوفيتى

لقد درست "كارولين همفرى" (Caroline Humphrey) مزرعة شاملة نائية وسط إقليم آسيوى فى الإتحاد السوفيتى ، قرب حدود منغوليا .

وفى هذه الخلاصة ، نستطيع أن نرى الجانب الإدارى للمزرعة يشبه المصنع إلى حد كبير

إن مزرعة "كارل ماركس" (Karl Marx Kolkhoz) وهى مزرعة تعاونية فى مقاطعة سيلينيا (selenya) فى عام ١٩٦٧ هى "مقاطعة إنتاج" ... وعمل رئيس القرية يختص بكل من الإنتاج والإدارة . وهو مسئول عن نظام العمل ، ويسمح بالسفر ، والإجازات المرضية والتأمين والمعاشات واستمرار قيام العمال بالعمل أو فصلهم ، والأمانة ونوعية عملهم ، كل هذا إلى جانب الإنتاج المباشر والأنشطة الموجهة للإنتاج ، والنقود للقروض المختلفة ، وتحصيل الدخول وتنفيذ خطة التوزيع للولاية أو الدولة ، وتوزيع الآلات والعمال للفرق أو الجماعات ، وهكذا " ...

(Humphrey, C., Karl Marx Collective, Cambridge University and Editions de la Maison de Sciences de l'Homme, cambridge and Paris, 1983, pp. 119 - 122.)

الصناعة والترشيد (Industry and Rationality)

إن الفلاحين العاملين يتخذون دائما قرارات متعقلة ، ويخططون للمستقبل معظم الوقت – وهم مضطرون للقيام بذلك ، وإلا فإنهم يفقدون الحياة – ولكنهم لا ينتجون على مستوى كبير،

مستخدمين عمالة كثيرة وطرقا حديثة . وقد نجد قادة الصناعة يراهنون على التقدم إلى الأمام إلى جانب قراءتهم لنتائج الكمبيوتر ولأحداث السوق . ويمكن للزراعة أن تأخذ شكل ما يقدمه الرى المحسوب بالكمبيوتر ، بالإضافة إلى المبيدات الكيماوية المتحكمة فى الحشرات . وفى المجتمع الصناعى ، نجد أن السمات العريضة – مؤسسات على نطاق واسع ، وتخصص ، وسيطرة الإحصائيات المتعلقة بالأسواق المختلفة (من أجل العمالة ، ورأس المال ، والأرض ، والإنتاج) والكل يأتون معا لكى يؤثروا فى المجتمع ككل .

كيف يحدث هذا ، وعملية التصنيع هى موضوع الجزء التالى .

عملية التصنيع :

هناك طريقتان مختلفتان لتحليل أصول التصنيع . ويرى الماركسيون أن أصل التصنيع هو تنمية رأس المال . وهذا الرأى يرى أنه كلما تواجد التقدم العلمى ، صاحب هذا التقدم إنتاج أكثر ، وازدادت قدرات الفرد تحسنا فى المجتمع . ومع ذلك فإن وجود علاقات الإنتاج ، وأشكال الثروات ، وما يؤخذ بدون منافسة عن كم الإنتاج الذى لابد أن يذهب لجماعات مختلفة فى عملية الإنتاج . ورؤية الذى يسهم فى قيمة الإنتاج ، كل هذه الأشياء تمثل قيودا على تحقيق الإنتاج للمجتمع ، وهناك تعارض قائم بين العوامل (التكنولوجية والمعلومات الفنية والحرفيين) للإنتاج والعلاقات (الترتيبات القانونية والتنظيمات الاجتماعية وأشكال التعاقدات وأشكال التوزيع والمعتقدات عن صحة المؤسسات الموجودة فى المجتمع) للإنتاج . هذه التناقضات تبدو فى أشكال مختلفة ، مبتدئة من الاضطرابات المحلية وانسحاب العمال إلى نوع من التعبير الثقافى عن الاحتجاج . وعلى أى حال فإن أى شكل من الأشكال المعلن عنها ، والطبقات الاجتماعية أو الجماعات الإجتماعية هى المستغلة معظم الوقت من النظام القائم ، وهى تحاول أن تطيح أو تلقى بهذا النظام أو الطبقة السائدة .

وليس هذا فقط وجهة نظر عن أصل الصناعة والرأسمالية ، فهى نظرية عامة عن كيفية حدوث التغير الاجتماعى والتنمية . ويمكننا التحدث بها عن فترة الإنتقال فيما قبل الصناعة والمجتمعات قبل الرأسمالية ، إلى المجتمع الصناعى الرأسمالى ، كما هو فى آخر مراحل التنمية ، وعلى وجه الخصوص الانتقال إلى المجتمع الاشتراكى .

إن معظم تحليلات "ماركس" تهتم بكيفية عمل المجتمع الرأسمالى – وتذكر أن عمله

الأساسى يسمى (Das Kapital) . إن معظم أعمال المدرسة الماركسية تهتم بدول العالم الثالث كما تركز على كيفية الانتقال من الرأسمالية الصناعية إلى الإشتراكية . وكانت هذه المشكلة هى المشكلة الرئيسية فى أعمال "فرانك" (Frank) و "وارن" (Warren) وموضحة فى الفصل الثانى

والأصل الثانى لهذه التقاليد ، يرجع إلى ما كتبه "دوركايم" فى علم الاجتماع ، وتأكيده على النمو المتبادل الحادث لتقسيم العمل فى المجتمع . وكما تتوقع فإن هذه التقاليد تشمل فروض وظيفية ، لتؤكد الطرق التى بها أعطى التصنيع فرصة لظهور مشاكل هذا التواكل الأدائى ، وللميل إلى الفوضى الاجتماعية – إنها نوع من الأمراض الاجتماعية – التى تظهر فى الفترة التى يصاحبها إنتشار الإنتاج الصناعى .

ومن هذا المنظور ، نرى أن الصناعة ينظر إليها على أنها تتدفق من محاولات لحل المشكلات الموجودة والناتجة عن زيادة كثافة السكان ، والتى يعتقد " دوركايم " أنها السبب الأساسى فى تقسيم العمل . وهذا المدخل يؤكد على دور هذه الأفكار والاكتشافات – فنيا واجتماعيا – والتى تأتى من الأفكار الجديدة . وعلى أى حال ، فإن نظريات التحديث ثابتة فى هذه المقولة . إن مفتاح مشكلة التصنيع فى هذا الرأى ، ليست العملية نفسها ، ولكن فى المشاكل الاجتماعية التى تحدث منها المشكلة الرئيسية والتى تسمى (بالأنومى) * (anomie) على مستوى الفرد أو المجتمع ككل . هذا الرأى الدوركاييمى يعرض نفسه فى نظرية التحديث ، مع اهتمام بالتكامل الاجتماعى وغير التكامل ، ونرى هذا فى النقاش عن (التحضر والسياسة) (أنظر إطار ٤ – ٥) .

إطار ٤ – ٥ التكامل فى المجتمع

يرى "بلاك" (C. E. Black) فى كتاباته عن سياسة التحديث فى الستينات ، أنه اختار مصطلح "المجتمع المتكامل" لكى يصف المجتمع الناجح فى التحديث :

إن جوهر هذا المظهر ... (فى التنمية) ... هو تلك الحركة الكبيرة للجماعات من الريف إلى المدينة ، أى انتقال بناء المجتمع من المناطق المستقلة تنظيميا والجماعات الحرفية إلى أخرى مفككة للغاية حيث يكون الفرد فيها معزولا .

إن مفهوم التكامل يعنى على وجه الخصوص ، أن يرتبط الفرد بالمحليات والإقليميات والأبنية الذاتية ، قد انخفضت أو تراجعت فى نفس الوقت ، وانتقلت إلى روابط أكثر انتشارا

، حيث ينوب فى المدينة وتقوى الشبكة الصناعية .

ومثل هذا المجتمع الذى يصل إلى هذه المرحلة من التكامل ، يمكن استغلال مصادره البشرية أكثر وأكثر ، وكلما ارتفع مستوى المجتمع فى الميكنة تعرض لحدوث شلل فى أشكال المؤسسات .

ومن المحتمل فى زمن الفوضى أن يصاب المجتمع بالبطالة على نطاق واسع ، وعدم الاستقرار الاجتماعى . وفى المجتمعات الأقل تكاملا ، نجد البطالة مكثفة ، بل يمكن أن يكون هناك من لا يعمل إطلاقا

(Black, C. E., The Dynamies of Modernisation, Harper and Row, New York and London, 1966, pp. 67 - 68)

ومن خلال هذه النظرية العامة ، ينظر دائما إلى الصناعة على أنها مفتاح التحديث . وأما دور مقاول الأفراد أو الملتزم فمؤكد عليه ، ولا يعنى أنه ملتزم صناعى ، بل بالأفراد المخترعة بوجه عام .

وفكرة "ماكليلاند" (MeCllelland) عن الحاجة إلى الانجازات the need for achievement "ناش" (Nach) (أنظر إطار ٤ – ٦) ، وهذا الرأى عن قوة الدوافع للتغير الاجتماعى عامة ، وعملية التصنيع كحالة خاصة أو كحالة بعينها للتغير الاجتماعى .

إطار ٤ – ٦ الحاجة إلى الإنجاز

كتابات ماكليلاند عام ١٩٦١ تقول :

"إن كل اهتماماتى ليست منصبة على النمو الثقافى ، ولكنها على النمو الاقصادى ... إننى مهتم بالعوامل الداخلية – فى القيم والدوافع التى لدى الرجال ، والتى قودهم لاستغلال الفرص ، واستغلال الظروف المواتية للظروف التجارية ، وباختصار لتشكل قدرهم أو مستقبلهم ... ومن بين الدوافع الهامة أو الرئيسية ، هناك ما نسميه "بالحاجة إلى الإنجازات" . إن الحاجة إلى الإنجازات * هى الرغبة للأداء الجيد وليست مجرد أن يعرفها المجتمع ، أو للحصول على ميزة ، ولكن للحصول على شعور داخلى شخصى بإنجاز شىء هام" .

* (Nach) هى اختصار "الاحتياج للإنجازات" (Needs a chivment)

(Mc Clelland, D., The Achievement Motive in Economic Growth, in Hoselits, B. F., and Moore, W. F. (eds.) Industrialisation and Society, 1966, pp. 74 - 76.)

إن كتابات "ويلبرت مور" (Wilbert E. Moore) تلخص الظروف التى أحدثها التصنيع على نطاق واسع فى المجتمع . (Wilbert E. Moore, Social Change, Prentice Hall, New York, 1964)

(أنظر إطار ٤ ـ ٧)

إطار ٤ – ٧

"مور" (Moore) وظروف التصنيع .

الظروف العامة للتصنيع :

١ – تغير القيم : إن هذا أساسى ويشمل تبنى الطرق المتعقلة أو الرشيدة فى حل المشاكل ، ومرتبطة بقاعدة قومية للشخصية ، والمفروض أنها تزود الناس باحتياجاتهم غير الرشيدة . وعلى وجه الخصوص ، فهى القاعدة التى يمكن أن يقوم عليها الحراك الاجتماعى

٢ – التغير فى النظم : إن التغيرات فى هذا المجال تقوم على تنمية العلاقات فى الأسواق وخاصة فى العمالة وفى الثروة . وهناك أنماط أخرى من الادارة – مثل الثروات المحجوزة وتنظيم العمالة غير المدفوعة ، وعلى سبيل المثال خطوط القرابة يمكن أن ترى أو ينظر إليها على أنها عوائق ، ولابد من التغلب عليها فى فترة الانتقال إلى المجتمع الصناعى

٣ – التغير فى المؤسسات : وهذا يعنى وجود تشكيل حكومى إدارى هرمى وخدمات مدنية كما فى المشروعات الفردية .

٤ – التغير فى الدوافع : كما يراها "مور" ، وهى عبارة عن رغبة قليلة لحياة أفضل ، والتى ترتبط بانتشار المشاركة ، لكى يستطيع الناس أن يشعروا بأنهم ضمن التغير . ماكليلاند والآخرون يرون أن الحاجة للإنجازات (Nach) يمكن تعلمها ، وأن التنمية يمكن تحقيقها من خلال عملية (النوبان) فى الثقافة والأفكار والتكنولوجيا .

وهناك كثير من المشاكل لهذا النموذج من الصناعة . وعلى وجه الخصوص ، فإنه ينظر إلى المجتمعات الصناعية الموجودة ويفترض أن مميزاتها أو خصائصها ، هى بالضرورة التى تحدث التصنيع فى المستقبل فى أماكن أخرى ... وإن تأثير العملية يمكن أن يكون السبب فى عملية مشابهة فى مكان آخر ، ولا يوجد هناك مبرر كاف في كيفية حصولها على مثل هذه السمات التى وصفوها أو زودوها بها هؤلاء النظريون .

والتعليق الآتى "لمور" (Moore) يلخص الموضوع أو القضية : كيف تحدث مثل هذه التغيرات فى أماكن نامية الآن ، وربما تعطى إجابة مختلفة ، حيث أن هناك تطورا بطيئا فى التاريخ الخاص بالصناعة فى العالم الغربى . وبالرغم من عدم وجود أى مؤسسة محرضة أو ذات سلطة مطلقة ، وحتى فى المجتمعات الدكتاتورية ، فإن الدولة تميل إلى أن تكون مؤثرة فى البناءات الاجتماعية عنها فى المجتمعات البروليتارية . (Moore, W. E., 1964, p. 97.)

وربما تسأل نفسك بعض الأسئلة عن هذا الرأى ، وعلى سبيل المثال :

١ – كيف كان التغير بطيئا فى الدول حديثة التصنيع ؟
٢ – إلى أى مدى كانت التغيرات التى أحدثتها الصناعة فى الداخل ؟
٣ – ماهى العوامل الخارجية التى يمكن أخذها فى الاعتبار ؟
٤ – هل هناك تاريخ واحد للتصنيع ؟ أو هل هناك اختلاف حول هذا التاريخ ؟

إن المؤرخ الاقتصادى "ألكساندر" (Alexander Gerschenkron) فى كتابه "التخلف الاقتصادى من المنظور التاريخى" (Harvard University Press, Cambridge, Mass., 1962) يؤكد أن التنمية مع القائمين على التنمية المحدثين يمكن أن يساعدوا أو يعوقوا بخبرات أو تجارب تلك المجتمعات التى سبقتهم بالتنمية . "إن القائمين بالتنمية يمكن أن تساعدهم أو تعوقهم المجتمعات التى سبقت فى هذا المجال" وقواعد هذه اللعبة قد تغيرت بتأثير الخبرات التنموية المتتابعة .

ڤيبر والتصنيع :

هناك نظريتان اجتماعيتان عن التصنيع غاية فى الأهمية . إحداهما قدمت بواسطة "ماكس ڤيبر" ، والأخرى تعرف بالنظريات المحورية "convergence thesis" .

لاحظت فى بداية كتاب "ڤيبر" (أخلاق البروتستانت وروح الرأسمالية) ، وهو عبارة عن جزء من دراسة كبيرة تهدف إلى اختبار العلاقة بين التغير الإقتصادى والمعتقدات الدينية . فهو يرى أن نشاط الناس الاقتصادى يتأثر إلى حد ما بالمعتقدات الدينية ، ويرى "ڤيبر" أن التنمية الرأسمالية كشكل عام من أشكال التنظيمات الاقتصادية فى بلاد بعينها فى شمال أوربا نتجت على الأقل بعد تبنى بعض التجار والحرفيين للديانة المسيحية الكالڤنية ، والتى تؤكد على مسئولية الفرد ، وأن يعمل بجدية ، وأن يحيا حياة بسيطة ، ويدخر ويخطط للمستقبل . وهى فى الواقع صفات التنمية الرأسمالية . ولكنهم لم يحدثوها "أى الرأسمالية" إلا أنها اتفقت مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية الموجودة فى ذلك الوقت ، بل أضافت دافعا فى اتجاه الرأسمالية . وينبغى ألا نسىء فهم "ڤيبر" من أنه لم يذكر أن المسيحية (الكالفينية) هى التى أدت إلى الرأسمالية ، بل أعطتها دافعا قويا إلى الأمام . وفى الواقع ، هناك أجزاء كثيرة من العالم كالصين ، التى نجد فيها الظروف الاقتصادية والاجتماعية مماثلة للظروف التى فى أوربا إلا أنه لم يكن هناك معتقدات دينية تعادل الكالفينية تساعدهم على هذا الطريق .

وهناك أبحاث كثيرة قد أجريت لتختبر هذا الفرض ، وخاصة كتاب "روبرت بيلا"

(Robert Bellah's book To kugawa Religion : The values of pre-industrial Japan (Glencoe, Illinois, 1957).

(قيم ماقبل الصناعة فى اليابان) ، والذى يوضح فى كتابه أن الزهد الظاهر فى ثقافة محاربى الساموراى ، أعانتهم حتى أصبحوا القاعدة الفعالة فى اليابان لقيام الصناعة الرأسمالية فى اليابان ، وفى مجال ريفى آخر مختلف . يقدم "باركن" دراسته عن أهل جيرمانيا فى كينيا بعنوان دراسة فى المجتمع الريفى . (Parkin, D. J., Palms, Wine and Witnesses, Intertext Books, 1972.) كما قام باحث آخر وهو "لونج" (Long) بدراسة عن مجتمع "اللالا" (the Lala) فى زامبيا ، فى كتاب بعنوان (التغير الاجتماعى والفرد) وكانت دراسته عن الاستجابات الاجتماعية والدينية للتجديد .

(Long, N., social change and the Individual : a study of ghe social and religious responses to innoviation, Manchester University Press, 1968.)

وكل من "باركن" و "لونج" اقترح أن القوم الذين هم فى مراكز ، يمكن أن يصبحوا مجددين وفى استطاعتهم تبنى الآراء الدينية الجديدة وعلى الأقل لأن هذا يعطيهم وسيلة للوصول إلى المساعدات المتبادلة من ذوى المعتقدات الأخرى ، وتتيح لهم فرصة الخروج من الواجبات التقليدية التى ربما تمتص رأسمالهم بعيدا . (أنظر إطار ٤ – ٨)

إطار ٤ – ٨ الإسلام عند "چرياما"

إن أهل جرياما هم مربو ماشية ، ويقومون بالزراعة لتساعدهم . ولهم الحق فى الأرض وفى إنتاج أشجار بعينها ، ويقوم شيوخ المجتمع بحمايتهم ، ويقرون بملكيتهم فى حالة النزاع . وفى خلال العشرينات والثلاثينيات بدأوا فى زراعة أشجار جوز الهند لكى يحصلوا على الثمن نقدا من بيع جوز الهند ولب جوز الهند المجفف . ولقد بدأ بعضهم ينعم بالثراء من جراء هذه الزراعة .

ولقد بدأ البعض منهم يواجه مشكلة :

"لابد وأن يتعاملوا باللغة التى ترضاها عاداتهم كوسيلة للسيطرة على الاستثمار ، "تذكر أن الملكية يقرها الشيوخ" ومن الجانب الآخر إن أهدافهم طويلة الأمد ، كانت تسعى إلى التوسع والتغير فى مشاريعهم الاقتصادية ، مع تقليل اعتمادهم على الزراعة" .

كان النقد يوجه إليهم ، لأنهم لا يتبعون العادات المكلفة ، مثل الانفاق فى حالات الزواج أو الجنازات – كما أنهم لا يقومون بالإحتفال بأعياد أو يشربون خمور التمر .

وبمثل هذا الحدث يمكن لنا أن نسميه مبدأ الطقوس الشائعة . ولقد تعرض العديد من هؤلاء الزراع الناجحين ووكلائهم لضغوط مكثفة ، ومروا بما يسمى روح الإسلام . وبعد ذلك أصبحوا مسلمين ، لدرجة أنهم يصومون رمضان ويمنعون الخمور ، ولا يأكلون أى لحم لا يذبحه مسلم ، فى حين أن خمور جوز الهند كانت تشرب يوميا فى "چرياما" (Giriama) واحتفالات أكل اللحم الجماعى كانت من الاحتفالات الدائمة فيها ، ومع ذلك فقد كانت هناك علاقات وثيقة بين الأصدقاء ، وعلاقات اجتماعية بين هؤلاء الزراع الناجحين وجيرانهم العاديين وأصدقائهم ... (Parkin, D. J., 1972, pp. 2-3.)

إن مثل هذه النظرية "الفيبرية" لا تهتم بالتصنيع مباشرة ، بل كانت تهتم بنظام العمل والعمالة والاختراعات ، وموقعها من التغير الاجتماعى والتاريخى ، وأن هذه الأشياء يمكن أن تحدث بدون التصنيع ونتائجه . ويوجد في كل المجتمعات مخترعون ، ولكنها كنظرية توضح نظام العمل والعمالة ، ولتفسير وإيضاح أصول الرأسمالية ، والإنتاج الصناعى الذى يعتبر اساس الرأسمالية ، وحينئذ فإن النظرية تشرح الصناعة .

النظرية المحورية :

هناك مجموعة من النظريات تعلق على التصنيع ، تعرف باسم الابحاث أو الرسائل المحورية ، حيث توجد فى أعمال "كلاركير" (clark Kerr) و "هاربن" (Kerr, c., Dunlop, J. and Harbin, F., Industrialism and Industrial Man , Heinemann, 1960.)

إنهم يقولون أن الانتاج الصناعى يتطلب الآتى :

(١) استثمارات عالية التكاليف – تؤدى إلى انتشار القوة بين كثير من مختلف الناس ، والإخصائيين الفنيين والإداريين .

(٢) اللامركزية – الاعتماد على الكثير من المتخصصين المختلفين ، وهذا يعنى أن القوة تنتشر بين الجماعات المختلفة من المجتمع .

(٣) اختيار الأجدر أو الأفضل : الاعتماد على المشروعات الفنية ، وهذا يعنى أن أفضل الناس والمناسبين يعطون القوة والسلطة عن غيرهم والذين يرثونها أى يرثون القوة ، إما عن طريق أسرهم أو من خلال نوع من التوالى (فرد يلى الآخر) ، أى بالوراثة * .

والخلاصة أن الفقر يختفى لأن العمال يطمحون دائما فى الحصول على الأجور الأعلى ، أما العمالة اليدوية الثقيلة ، لم تعد متوفرة لأن الناس قد تحولوا إلى استخدام الخدمات الفنية والتكنولوجية أكثر ، كما استخدموا أنماطا معينة من العمالة . وتأخذ الدول الحديثة على عاتقها مسئوليات أكبر ، من أجل الرخاء . وهم يعتبرون أن الدولة الاشتراكية كالإتحاد السوفيتى ، مجرد أسلوب لشرعية الاعتداء على التصنيع . وفى النهاية كل المجتمعات الصناعية ، سوف تصل إلى صفات متشابهة ، وأخيرا تأخذ الشكل الأوربى الغربى أو أمريكا الشمالية .

---

* يتميز نمط السلطة فى البلاد النامية بالطابع الاستبدادى ، الذى يستمد مبرر وجوده من مصادر غيبية أو وراثية – هناك بعض الاستثناءات من هذا الحكم العام – كما وقد عمدت بعض القوى الاستعمارية الى تدعيم هذه السلطة بغرض أن تيسرعلى نفسها وظيفة جباية الضرائب ، جمع الموارد والمنتجات الزراعية التى تريدها السلطة المستعمرة لتصديرها خارج البلاد .

– محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف ، جـ١ ، ١٩٧٨ ص ١٦٩ .... [المترجمة]

إن هذا الرأى عن التصنيع ، يوضح الطريق لشرح أو إيضاح طرق التقنية أو التكنولوجيا التى يتم بها الإنتاج ، والتى تحدد شكل المنظمات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية . إن أحد تنبؤات هذه النظرية ، هو أن الدول سواء كانت اشتراكية باقتصادها المخطط ، أو الدول ذات الاقتصاد الرأسمالى وأسواقها الحرة ، سوف تتقارب ، مؤدية إلى "نهاية الأيدولوجيا" والتى كانت عنوانا لكتاب "دانيال بل" (Daniel Bell) أحد أعضاء هذه المدرسة .

أما "لونج" (Long) فقد اعتبرها نظرية غير كافية بسبب إصرارها على الحتمية التكنولوجية :

أما التغيرات الأخيرة فى الصين وفى الاتحاد السوفيتى ، فإنها تدفعنا لإعادة النظر بطريقة جادة ، على أنها نظرية غير كافية لتوضح كيفية حدوث الصناعة ، وربما كانت وصفا مفيدا لسمات عامة للمجتمعات الصناعية بوجه عام . ومن المؤكد أيضا أن أجزاء من العالم الثالث قد أصبحت مجتمعات صناعية خاصة فى شرق آسيا ، حيث توجد "تايوان وسنغافورة وكوريا الجنوبية وهونج كونج" التى مارست تغيراً وانتقالاً جذريا خلال العشرين سنة الأخيرة .

ظروف التصنيع :

إن نقاد نظرية التحديث قد أوضحوا أن التصنيع فى دول العالم الثالث لا يتبع نفس النمط كما هو فى العالم المتقدم . فهؤلاء الجدد يدخلون لعبة مختلفة ، حيث لابد وأن يتغير النظام أو القانون . وفى هذا القسم ، نلقى نظرة على القواعد أو القوانين ، ونرى كيفية حدوث التصنيع ، وما هو الشكل الذى اتخذه . والتفكير فى هذه المشكلة ، يرجع جذوره إلى صدمة الحرب العالمية الثانية ، عندما انقطعت دول العالم الثالث عن التصنيع وعن أوربا وأمريكا الشمالية . (أنظر إطار ٤ – ٩)

إطار ٤ – ٩ العزلة والتصنيع

بظهور قوميات ، دول جديدة لتكوّن ما يسمى بدول العالم الثالث ، اشتدت الحاجة إلى طلب التنمية الصناعية فى هذه البلاد . وخلال الحرب العالمية الثانية ، عندما ضعفت المنافسة بين الدول المتقدمة ، نتيجة توقف الخطوط الملاحية ومايشبه ذلك ، ظهرت البرجوازية الصناعية الصغيرة فى بعض الدول الأقل تقدما . وبعض هذه الصناعات بالإضافة إلى التجار والتجار الأغنياء من دول العالم الثالث ، تطلعوا إلى تكوين القطاعات الصناعية من

أجل الثراء الرأسمالى . أما السياسيون فى الدول حديثة الاستقلال ، فقد كانوا يتطلعون إلى التصنيع كوسيلة للتنمية التى لم تكن للبلاد فحسب ، بل كانت لأنفسهم كذلك . وعلى الأقل فإن بعض هؤلاء القادة ذوى القوة ، رأوا أن الصناعة فيها منفعة مادية لهم ، وخاصة فى تكوين الشركات الصناعية المحلية ، التى يستمدون عن طريقها نوعا من الدكتاتورية .

(Edwards, C. B., The Fragmented World, Methuen, London and New York, 1985, p. 211.)

وفى هذا المقتطف يجب أن تلاحظ أن التصنيع له جذوره التى تشغل اهتمام الطبقات ، إلا أنه لم يكن نتاج عمليات النمو الطبيعى .

هذه العزلة أدت إلى فكرة استيراد الصناعات البديلة ، فكانت موضع اهتمام الكثير من الناس وخاصة فى دول أمريكا اللاتينية ، فى حين أن دول العالم الثالث لم تستمر كما كانت فى فترة الاحتلال ، لتظل فقط مصدرا للإنتاج (إنتاج المعادن والزراعة) والتى كانت تنتج فى دول العالم الثالث ولكنها تنمو فى الدول المتقدمة . ولم يكن ذلك مجرد طلب محدود على هذه المنتجات، بل يصاحبها أيضا انخفاض فى الأسعار . وبكلمات أخرى "كانت هناك مصطلحات معادية للتجارة" ، إنك تضطر أن تنتج أكثر وأكثر منتجات أولية لتشترى نفس كميات البضائع المصنعة المستوردة . إن الإنتاج الأساسى أو الأولى لا يؤدى إلى النمو الاقتصادى لأسباب أخرى كذلك . (أنظر إطار ٤ – ١٠)

إطار ٤ – ١٠ الإنتاج الأساسى أو الأولى ، "الروابط" و "والصناعات البدائية"

فى أوائل الستينات كان هناك تشاؤما فى تقدير العائد على المنتجات الأساسية ... (بعض) الاقتصاديون يقولون أن القطاع الأساسى (the primary sector) كان يلازمه التخلف إذا قورن بالقطاع الصناعى بسبب الروابط الخاصة بالأخير (العلاقات الداخلية بين قطاعات الصناعة والأجزاء الأخرى للإقتصاد) ، وبسبب الإدعاء بأن الإقتصاد الأعظم يقع فى الصناعة ... فإذا ما نشأت مثل هذه الصناعة المتقدمة ، فإنها تجذب الأنشطة الأخرى حولها ، بسبب ما تتطلبه من كل الامدادات من صناعات أخرى وتدعيم أساسى ، كما تتطلب أيضا عمالة ماهرة ...

إن تنمية أو ترقية الصناعات مع تدخل الحكومة توفر كلاً من الدعم المادى (أنظر إطار

٤ – ٨) فى الدول الأقل تقدما والمبررات النظرية . ويقال أن هذا الترقى لابد وأن يتأتى عن طريق الحماية ، بحجز الأسواق الداخلية لهذه الصناعات حديثة التأسيس ... هذه الصناعات البدائية ، أى فى بداية قيامها كانت تحتاج لفترة من الرعاية ضد الرياح الباردة من الدول المنافسة . وهكذا نجد أن الصناعات فى مراحلها الأولى ، تستخدم فى تبرير الحماية التى تمت فى دول العالم الثالث فى الستينات .

(Edwards, C. B., 1985, pp. 211 - 212.)

إن تصدير المواد الصناعية البديلة لم ينجح ، بالرغم من أن التصدير فى الستينات فى دول العالم الثالث قد ازداد بسرعة كبيرة ، من ثلاثة ملايين عام ١٩٦٠ إلى أكثر من تسعة ملايين عام ١٩٧٠ ، بل وصل إلى ثمانون مليونا عام ١٩٨٠ (C. Edwards, 1985, p. 218.) وما كان هذا ناتجا عن استيراد المواد البديلة ، بل كان نتاج مايسمى بالتقسيمات الدولية الجديدة للعمالة .

إن استيراد البدائل قد وقع فى المشاكل الآتية :

(١) من إطار ٤ – ١٠ تستطيع أن ترى أن الصناعات الطفولية أو الحديثة ، لابد من حمايتها بالسياسة الحكومية ، وذلك بفرض التعريفة الجمركية وعمولات الاستيراد والمواد الخام ذات الأسعار الرخيصة . وهذا يعنى أن الصناع قد تم حمايتهم من السوق ومن أى مناقشات عقلية ورشيدة ، عن ما هو وكيفية انتاجه .

(٢) تحتاج الصناعات الحديثة إلى آلات وكيفية العمل الفنى أو التكنولوجى ، وهذا لابد من استيراده ، والاستيراد يتطلب عملة صعبة والتى لابد وأن تكتسب بزيادة التصدير من المنتجات الأولية .

(٣) يمكن استيراد الآلات والتكنولوجيا من الشركات العالمية المعروفة مثل (TNCS) أى (الاتحاد الدولى للنقل) ، وتستطيع هذه الشركات أن تستثمر إذا كان الاستثمار فى صالحها ، ولا يمكنها أن تستثمر إذا لم تبع فى السوق المحلية ، وهكذا تدمر الصناعة الطفولية أو الحديثة .

(٤) كان هناك طلبا محدودا لتصنيع المنتجات فى دول العالم الثالث ، لأن معظم الناس كانوا فقراء ، لا يستطيعون الشراء . وقد يرغبون شراء تليفزيون وسيارة ومرطبات وسلع أخرى

للرفاهية ، إلا أن رغبتهم الأولى كانت تتطلب مسكنا نظيفا ومأكلا ومأوى * .

إن الفشل فى استيراد المواد البديلة للتصنيع يعنى أنه لابد من اختيار طريقة جديدة وتجربتها . (أنظر إطار ٤ – ١١) وقد أدى هذا إلى سرعة نمو التصدير المصنع فى السبعينات وفى بداية الثمانينات ، والتى أشير إليها من قبل . وهذا المدخل الجديد قد سُمِّى (تصدير الصناعات الموجهة) .

إطار ٤ – ١١ نظرية التبعية وفشل استيراد المواد البديلة للصناعة :

نظرية التبعية تمتد جذورها فى فشل استيراد المواد البديلة للصناعة فى أمريكا اللاتينية .

"إن نظرية التبعية هى رد الفعل لمفهوم الفشل فى التنمية القومية من خلال استيراد المواد البديلة للصناعة ... ففى الستينات ... أصبح من الواضح ... أن استيراد المواد البديلة لم يقلل الاعتماد أو التبعية . إن الدخول (Income) البديلة قد بدت وكأنها تنمو بطريقة غير متساوية ، أو غير متكافئة ، وظلت مجموعة كبيرة من الناس عى الهامش ، وانتشر الاغتراب الثقافى ، واستمرت مجتمعات أمريكا اللاتينية مقسمة وغير مستقرة وقد حضعت السياسات القومية للتصنيع لنظام الاتحادات القومية المتعددة ، وكان التصنيع فى أمريكا اللاتينية تحت سيطرة وسيادة المستثمرين الأجانب ... "فنظرية التبعية ظهرت كمحاولة لشرح هذا الفشل" .
(O' brien, P., A Critique of Latin American Theories of Dependency in Oxaal, I., et. al. (eds.), 1975, pp. 10 - 11.)

إن هذا النوع من التصنيع ، قد جرِّب فى شرق آسيا والبرازيل ، ولم يتعرض للفشل . ففى بداية السبعينات قامت كوريا الجنوبية بالتصدير بنسبة كبيرة أكثر من ٢٠٪ فى السنة . (Edwards, C. B., 1985, p. 296.) ومعظم هذا التصنيع قائم على الصناعات الخفيفة (على الرغم من أن كوريا الجنوبية لديها صناعة ثقيلة من الصلب ، إذ تقوم ببناء السفن والسيارات) مثل الألكترونات والملابس . وهذه التنمية قامت على الإنتاج الجماهيرى ، نتيجة لتدخل الدولة . وبالرغم من وجود مثل هذه الظروف فى دول أخرى ، إلا أنها لا تستطيع أن تتكرر فى أى دولة أخرى (أنظر إطار ٤ – ١٢) .

* هناك أولويات بالنسبة للمجتمعات الفقيرة ... ومن هنا نجد أن المهاجرين من هذه البلاد يعودون إليها وقد اقتنوا هذه السلع الكمالية كنوع من التعويض عن الحرمان السابق ، ولهذه السلوكيات آثارها الاقتصادية السيئة على المجتمعات النا مية ، كما يؤدى إلى زيادة التبعية للبلاد الصناعية . ... [المترجمة]

ويجب أيضا ملاحظة أن فى مثل هذه الدول ، هناك مستوى عال من التعصب العرقى ووحدة ثقافية ، والتى ربما كانت تحت ستار القومية ، وتسمح الأنظمة الحكومية بسياسة الكبت الشديد لتأخذ مجراها من خلال سياسة خشنة ، تفرض أجوراً ضعيفة وساعات عمل طويلة . وهذه القومية التى لابد وأن نقارنها بالاختلافات العرقية والدينية والثقافية فى الهند وكثير من دول أفريقيا ، وقد قويت فى الهند نتيجة لقربها من الصين الشيوعية ، وتهديدها المستمر للدول ذات الشعوب الكبيرة ، والتى لجأ معظمهم هربا من الشيوعية ، كما هو الحال فى تايوان وهونج كونج .

إطار ٤ – ١٢ عوامل خاصة وكبت سياسى فيما يسمى "النمور الأربعة الصغار"

"إن العامل الرئيسى فى نجاح هونج كونج هو صلتها الخاصة مع الصين ، ومنها قد استمدت تدفقا غزيرا من العمالة المهاجرة ، كما استمدت كذلك رأس المال ... كما هو الحال فى كوريا الجنوبية ... فهناك حقيقة مادية لتدخل الحكومة من أجل إنتاج جماهيرى وترقية الصناعة ، فالحكومة تقدم معونات وأرباح على التجارة التى نشأت من حرب فيتنام ، والتى لعبت دورا كبيرا فى كل من كوريا الجنوبية وتايوان ... أما فى سنغافورة ، فكانت هذه العوامل أقل أهمية ، إلا أنها لعبت كذلك دورا إلى حد ما" .

(Edwards, C. B., 1985, p. 296.)

وتعتمد الكثير من الحكومات على القوة . فالحكم العسكرى يستخدم سلطته فى يوم الاستقلال ، ليقنع أو يوهم المواطنين ، كما أنه يرسم الخطط والتجهيزات لحصر حركة العصيان أوالتمرد ، فهى حرب طبقية من نوبهم وليست ضد عدو أجنبى ... دول شرق آسيا ... لقد تحملت لحكم طويل من الكبت ضد التنظيمات الشعبية من أى نوع : حوالى مائة وأربعون سنة فى هونج كونج : وما يقرب من قرن فى تايوان وكوريا الجنوبية . ولا يستطيع أحد أن يجاريهم فى هذا المضمار فى العالم ، ماعدا جنوب أفريقيا .

(Worsley, P. M., The Three worlds, Weidenfield and Nicholson, 1986, p. 228.)

ولا ندرى ما إذا كانت خبرة الدول يمكن أن تتكرر فى دول أخرى . فهناك رأى يقول إنه لا يمكن ذلك . إنه يأتى من نظرية النسق العالمى ، ويشير إلى دور الإتحادات عبر الأوطان . وأثناء كتابة هذا الكتاب ، كسرت الآلة الكاتبة ونظرت داخلها فوجدت مكوناتها تأتى من دول

مختلفة ، فقد جاءت من تايوان وسنغافورة وهونج كونج والسلفادور والمكسيك . وهكذا وجدت أن الآلة الكاتبة قد انتقلت آلاف الأميال قبل أن تتجمع فى شكل واحد . وهذا هو مثال من الأمثلة لما نسميه "تحليل رأس المال" ، والعملية التى بها تستطيع الشركات الكبرى نشر مراحل مختلفة للإنتاج بين بلاد مختلفة ، معتمدة على استطاعتها فى الحصول على أحسن المعاملات من أجور منخفضة ، ومهارات عالية ، ومساندة الحكومات لها . ويأتى هذا الدعم والمساندة دائما من مناطق عمليات التصدير . وهذه مناطق خاصة داخل البلاد ، حيث يحصل المستثمر الأجنبى على ظروف خاصة لصالحه ، مثل الإعفاء من الضرائب على الواردات . ومثل هذه المناطق توجد فى بريطانيا . وهناك حالات أخرى : حيث تعمل الإتحادات الدولية على إقامة أعمال تجارية ، وتقيم أطول فترة ممكنة تجنى فيها الفوائد الخاصة ، وتغادر المكان بعد عدة سنوات ، حيث تجد مكانا أفضل وجذبا أكثر .

وفى هذا الرأى نجد أن النسق العالمى ينظر إليه كوثائق رأس المال ... وانتقال سيطرة رأس المال القومى والدولى ، والقومى الموجه وحكم للأغلبية العمالية (غالبا أرخص وأضعف الطبقات العمالية هى النساء دائما) اللاتى يقمن بالعمل . والتقدم الذى يحرزه هذا الرأى على نظرية التبعية ، أنه يسمح بوقوع نوع من التنمية فى الدول التى على محيط الدائرة ، كالبرازيل والأربعة نمور الصغار الذين يتوسطون بين المدن الكبيرة والتوابع لنموذج التبعية .

الدعوة من أجل إقامة نظام عالمى جديد للاقتصاد : –

The Call for a New International Economic Order (NIEO).

على الرغم من نمو التصنيع السريع والمؤثر فى بعض أجزاء من دول العالم الثالث ، فإن كثيرا من الدول تعتمد وبشدة على الإنتاج الأولى ، لأن معظم شعوبهم تقوم بالإنتاج الزراعى ، فهم يهتمون بالحصول على أعلى سعر لمحصولاتهم وبيعها نقدا . وربما تتذكر أننى قد ناقشت هذه المشكلة بالمصطلحات الخاصة بالتجارة بين المنتجات الأولية والمصنعة .

وفى بداية السبعينات نادت كثير من دول العالم الثالث بفكرة (NIEO) ، كانت هذه الفكرة تأمل فى تكوين ما يشبه باتحاد تجارى لدول العالم الثالث ، وإحدى نتائج أو عائد هذا ، هو تكوين مجموعة من سبع وسبعين دولة ، وهى فى الواقع الآن تتكون من مائة وعشرين عضوا ، إلا أنها ليست مؤثرة جزئيا ، لأن المنتجين المبتدئين يتنافسون بعضهم البعض لبيع منتجاتهم ، ويعمل اتحاد التجارة إذا قام أعضاؤه بالعمل فى وفاق ... ومنظمة الأقطار المصدرة

للبترول هى إحدى هذه التنظيمات الناجحة تماما حتى الآن (OPEC) ، وأن مستقبل هذا العمل متوقف على طريقة تصدير المنتجات الزراعية ، الذى لا يبدى تفاؤلا ، لأن أسواق العالم، بعد كل شىء ، هى أسواق لا تأخذ فى اعتبارها الاحتياجات الاجتماعية لدول العالم الثالث ، بالرغم من نداءات لجنة "براندت" (Brandt)

(Brandt, W., North - South : A Programme for Survival, Pan Books, 1983.)

من أجل الوصول إلى علاقات شريفة بين الدول الغنية فى الشمال والدول الفقيرة فى الجنوب ، بسبب الاهتمام العام بالربح ، الذى يبدو أكثر أهمية من "العدالة" .

ملخص : لقد شاهدنا كيف كانت مشكلة التصنيع هى مفتاح مشاكل علم الاجتماع عامة، وهى مشكلة هامة لعلم اجتماع التنمية ، فالتصنيع يأخذ الإنتاج من المنزل إلى العالم الخارجى . ونظرية التحديث القائمة على رأى "دوركايم" و "ڤيبر" اللذان يؤكدان أن التصنيع يشمل التغيرات فى اتجاهات الناس وتوقعاتهم ، وفى إقامة علاقاتهم . ويناقش فيبر الترشيد ، منبهاً أن الرأسمالية تتطلب تغيرا ثقافيا مؤثرا على التخطيط والكفاءة والتعليل الدقيق . وقد رأينا العلاقة الوطيدة بين التحضر والتصنيع ، مع أننا يجب ألا ننسى أن الزراعة يمكن تصنيعها ، وأن الفلاحين على مستوى من الرشد مثل الصناعيين .

وقد أوضحت أن هناك طريقين مختلفين لتحليل أصول التصنيع . فالماركسية توضح أصل الصناعة وارتباط هذا الأصل بالتنمية الرأسمالية ، بالرغم من عدم وجود اتفاق قوى فى داخل هذا الرأى التقليدى ، ممثلا فى نظريات " فرانك " و "وارين" (Frank and Warren)

والدوركايميون يرون أن التبعية تنمو مع تقسيم العمالة فى المجتمع .

أما "الكسندر جير سكنكرون" (Alexander Gerschenkron) يحذر من المشاريع المستقبلية ، بناء على الخبرات السابقة للتصنيع ، لأن كل خبرة تغير الأحكام أو القوانين السابقة .

ولقد تأكدت من أن لڤيبريين وإسهاماتهم تركز على مكان الملتزم أو المقاول أو الوسيط ، كما لاحظت أن النظرية المحورية (convergence theory) تحتاج إلى كثير من الاهتمام . ورأينا أن سياسة الواردات البديلة قد فشلت ، وأن فشلها قد أعطى دفعة لنظرية التبعية ،

والحركة للتصدير قادت الصناعة ، مع ما يصاحبها من ظروف خاصة ، والتى ساعدت النمور الصغار وبعض الدول الأخرى على التصنيع . وكل ما تحاول أن تظهره هذه النظرية ، هو أن تنمية الطبقات العاملة عالميا ، نتاج أنشطة الاتحادات المتنقلة عبر القارات . إن أهم شيء فى التنمية هو تدخل الدول من خلال الإعانات المادية للاستثمار وفرض ظروف سياسية ، حيث تقسم العمالة ، وتمنعها من الاتحاد لكى تنظم أمورها الخاصة . وقد ذكرت فى هذا الفصل أن الدولة تلعب دورا هاما فى التنمية . وسوف أفصله فى الفصل السابع .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس

التنمية الزراعية ودخولها السوق

لقد ألقينا نظرة على مشاكل التحديث والصناعة ولكننا قد وجدنا أن معظم دول العالم الثالث ، لها نمط معين من الحياة ، هو النمط الريفى ، الذى يشغل معظمه الزراعة ، فالأسر والبيوت تعمل معا على انتاج المحاصيل وتربية الحيوانات لمساعدة أنفسهم إما ببيعها نقدا أو اتخاذها مظهرا من الأنشطة المتعددة المختلطة . وهناك مشكلة هامة بالنسبة للتنمية الاجتماعية ، وهى كيف يقع الانتقال من الإنتاج المعيشى والمجتمع المعيشى إلى إنتاج من أجل السوق ، مع الإنشغال فى مجموعة كبيرة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية * . وهذه العملية تسمى "التغيرات الزراعية والريفية" ، وكما كان فى التصنيع ، فإنها "أى التغيرات الزراعية والريفية" ، مركزية بالنسبة لعلم الاجتماع ، وأنها الوجه الآخر لنفس العملة ، وفى المجتمعات غربية التغير ، حدث ذلك منذ مائتى سنة تقريبا . (أنظر إطار ١- ٣) .

ودعوة أو فرضية "جيرشكنكرون" (Gerschenkron thesis) فيقول : ينبغى ألا نتوقع أننا سوف نتبع نفس النمط . فإن الماضى خير من يعطينا التنبؤ بالمستقبل فى الأمور الاجتماعية . ومع ذلك فإن التغير الريفى والزراعى فى غاية الأهمية فى دول العالم الثالث الأن . كما أنه يحدث كثيرا من المشاكل فى كل من الاتحاد السوفيتى والصين ، ولا تزال صعوبات كثيرة مستمرة حتى الأن .

---

* إن المعايير الإجتماعية وما يرتبط بها من روابط نفسية تحصر الفرد إجتماعياً فى دائرة العائلة أوالمجتمع المحلى أو "القبيلة" وهذا الإرتباط الإجتماعى والنفسى له آثاره على نوعية التعليم ومداه فهو يتحدد على أساس الإنتماء الواعى للشخص ، وليس على أساس قدراته أو طموحه . فالأجيال الجديدة تمتثل للأجيال السابقة إمتثالاً غير قائم دائماً على الإقتناع . وهذا الإرتباط بالأشكال الإجتماعية القديمة من شأنه أن يعوق المرونة فى التكيف مع المواقف الإجتماعية المتغيرة ويعرقل قبول التجديدات والإختراعات وكلها من الأمور التى يتطلبها نظام إقتصاديات السوق لكى يؤدى عمله على نحو سليم .
عن دور التنظيمات الثقافية والإجتماعية ودورها فى عملية التنمية فى دول العالم الثالث يمكن الرجوع إلى :
محمد الجوهرى علم الإجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، وجع سبق ذكره . ... [المترجمة]

بعض الانطباعات الزائفة فى دول العالم الثالث :

كثير منا لديه انطباعات غامضة عن كيفية معيشة الآخرين فى المجتمعات الأخرى . وعلى سبيل المثال ، يعتقد كثير من الناس أن فى أفريقيا والباسفيك ، يعيش الناس "قبائل" ، بينما فى الهند ، النسق الطبقى مهم جدا ، وأن كثيرا من هذه الصور ليست صحيحة ، لأنها تعكس فهما ضيقا لهذه الأنساق الاجتماعية ، والتى كان يعمل لها دعاية أثناء فترة الاحتلال ، والتى مازالت قائمة حتى الآن بالرغم مما نتعلم فى التاريخ أو الجغرافيا . وعلى سبيل المثال ، كان الناس دائما فى إفريقيا ينضمون إلى جماعات أكثر من انتمائهم للوطن ، ولكن هذا لا يعنى ما تفكر فيه من أنهم قبائل . (أنظر إطار ٣ – ٢ حيث تكتشف تعقيدات ارتباطات الناس) وربما تعتقد أن القبيلة هى منظمة هرمية ، ذات رئيس يقوم بإخباركل فرد عما يجب أن يعمله . وفى الواقع هناك أشكال كثيرة من التنظيمات الاجتماعية فى أفريقيا . فبعض الناس يشبهون النوير (the Nuer) ، وهم رعاة فى جنوب السودان يعيشون جماعات صغيرة معظم السنة ، ولم يكن لهم قائد ، كما لم يكن لهم شخصية محددة مثل (النوير) . فهم يعيشون يوما بيوم ، وهم إلى حد ما يتشابهون أو يتماثلون مع من يعملون فى البيوت أو الجماعات التى يعملوا ويعيشون معهم ، وعلى النقيض الآخر من المنظور ، يوجد أناس آخرون لهم تنظيمهم الهرمى وقادتهم مثل (الهوسا) فى شمال نيجيريا .

وحتى عند قدوم الاستعمار ، كانت هناك تنظيمات مختلفة اجتماعية واقتصادية فى إفريقيا والباسفيك ، فالنوير يعيشون حياة منعزلة عن الناس حولهم (وسبب ذلك أنهم قد أغير عليهم فى القرن التاسع عشر واستعبدوا من العرب) (والهوسا) على النقيض ، كان لها علاقاتها التجارية والسياسية مع كثير من المجتمعات ، وعلى وجه الخصوص مع العالم الإسلامى إلى الشمال :

وفى إفريقيا قبل الاستعمار ، يجد المرء أن الدول المركزية عظيمة وهناك دول أخرى صغيرة محلية ومجتمعات مفككة ، وكلها مجتمعة مع أنماط وسيطة .

أما فى آسيا فالوحدات السياسية كبيرة ، حيث كانت النموذج أو المعيار ، إلا أن درجة سيطرتهم على المجتمعات الريفية مختلفة . وفى الباسفيك كانت هناك تنظيمات على نطاق ضيق Small Scall وكانت هى المسافة ، أما فى هاواى فقد وجدت ولايات كبيرة فى بعض الأحيان . ويجب أن نؤكد على المكونات الثقافية ، فهى القاعدة أو الأساس للدول الحاضرة ، وقد أنشىء

معظمها عن طريق حكومات استعمارية ، ويشذ عن ذلك ، نمط حكومة إثيوبيا وحكومة تايلاند ، مع أن هؤلاء لم يتأثروا بالوقع الاستعمارى .

الاستعمار والرأسمالية من "البدائية أو الوحشية إلى الفلاحة" :

هناك مشكلة رئيسية أمامنا ، وهى أن نفهم كيف أصبحت المجتمعات (ذات الاقتصاد المعيشى) قبل الرأسمالية ، جزءا من النسق العالمى ، ولكى نفهم ذلك ، فلابد من معرفة سبب توسع الاستعمار . وهناك آراء مختلفة حول ذلك . والرأى الشائع أن أوربا قد قامت بالاستعمار كجزء من "نشر المدنية" ، إلا أن رجال الاجتماع لا يتقبلون ذلك كمبرر لشرح القضية . ولكنهم يتساءلون لماذا ومتي حدث هذا ؟ وما هى الأسباب الأخرى حول هذا الموضوع ؟ ولما تتبنى أوربا بالذات تلك المهمة السامية فى القرن التاسع عشر ؟ هل ذلك بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، التى كانت فيها المجتمعات الإستعمارية ؟ وهنا يشيرون لأربعة مظاهر من التوسع الاستعمارى ، والتى تتطلب منا مزيدا من الفحص والاختبار ، وهى كالآتى :

(١) الحاجة إلى ايجاد أسواق للمنتجات الصناعية الأوربية .
(٢) الطلب من أجل المنتجات الاستوائية ، مثل زيت جوز الهند والقطن كمدخلات رخيصة لصناعة الصابون والمرجرين والنسيج ، لتوسع السوق المحلى ، حيث إن العمال يتزايدون بالهجرة إلى المدن الداخلية التى بدأت فى النمو .
(٣) الحاجة إلى العمالة الرخيصة والمرتبطة بالمستعمرات لإنتاج هذه المنتجات الإستوائية .
(٤) استراتيجية النزاع بين القوى الأوربية المتنافسة مع بعضها البعض ، من أجل مصادر دول العالم الثالث .

وتحت هذا المظهر القائل "بنشر الحضارة" تقع مصالح اقتصادية محددة . كيف استطاعت هذه العوامل الأربعة أن تؤثر تأثيرا واقعيا وعلى وجه الخصوص ، فى عملية الاستعمار ؟ وكل حالة لها مغزى . ومن المهم فى كل حالة ، أن المستعمرات قد ساهمت فى إقامة الحكومات الاستعمارية والتى أنتجت المحاصيل والمعادن من أجل البيع فى السوق العالمى . (أنظر إطار ٥ – ١) .

إطار ٥ – ١ القطن فى السودان

إن مشروع الجزيرة فى السودان ، مشروع هائل لمزارع القطن . وقد أنشىء عام ١٩٢٥، عن طريق بريطانيا – للأسباب الآتية :

"كان السودان على غاية من الأهمية الاستراتيجية بالنسبة للإمبراطورية البريطانية ، فكونت خطا هاما من اللون الأحمر على الخريطة ، ليكون حلقة اتصال هامة عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى القاهرة ، حيث أنها المنطقة الهامة والضرورية لحماية قناة السويس ، والطريق المؤدى إلى الهند ... ولمواجهة ضرورة إدارة بلد غير نامية كالسودان ، كان ضروريا على الحكومة البريطانية ألا تتحمل عبء النفقات ... والجواب كان على بريطانيا أن تساعد السودان لكى يقوم بتمويل مشروعاته ، وهذا عن طريق قيامه بزراعة القطن .

(Barnett, T., The Gezira Scheme : an illusion of development, Frank Cass, 1977, p. 4.)

هذه الحاجة للإنتاج بطريقة جديدة على نطاق واسع من أجل السوق ، يصاحبها مشكلة فكان الأهالى المحليون مترددين دائما فى قبول الحضارة ، والإنتاج من أجل البيع ، أو العمل فى المزارع أو فى المناجم . وتواجدت حالات تظهر معارضة الشعب الشديدة للأستعمار : مثل قبائل (الآشانتى) (the Ashanti) فى غانا ، وهم الذين أقاموا حربا موجهة ضد بريطانيا ، كما قامت قبائل (الزولو) (Zulu) فى جنوب إفريقيا بحرب كذلك . وإلى جانب هذا المنظور من المعارضة ، كان هناك آخرون يرفضون ، وبطريقة ساخرة ، كرفضهم للعمل . وكان رد الفعل للحكومات الاستعمارية هو إجبار تلك القبائل على العمل عن طريق فرض ضرائب عليهم ، ولابد من دفعها نقداً ، وهذا النقد لابد من كسبه عن طريق عملهم كعمال مهاجرون (كما وقع فى وسط وجنوب افريقيا) ، أو بزراعتهم المحاصيل التى يمكن أن تباع نقدا مثل النخيل وزيت النخيل ، أو زراعة نباتات النيلة (indigo) التى تعطى الصبغة الزرقاء التى تطلب فى صناعة النسيج . (أنظر إطار ٥ – ٢)

إطار ٥ – ٢ العمالة الإجبارية والضرائب فى غرب إفريقيا

فى مساء يوم الحرب العالمية الثانية ، كان على فلاحى غرب إفريقيا الفرنسية ، أن يزودوا فرنسا ... بـ ١٧٥ مليونا من الفرنكات كل عام كضرائب على الماشية ، و ٢١ مليونا من

الأيام من العمالة الأساسية ، و ١٢ ألف جندى ... وأضيفت الضرائب مباشرة على المدفوعات ، عن طريق رؤسائهم ، أما الديون فتدفع للمجتمعات المقتصدة ... وتقدم للموظفين المشرفين على عمليات الإنتاج الزراعى والسلعى ولاستضافة الموظفين الإداريين ...

كان البيع إجباريا للمحاصيل المنخفضة الأسعار ... وكان يوم العمل للدولة يمثل يوم عمل مقتطع ويستبعد يوم عمل آخر من أجل الرؤساء والمجندين للخدمة العامة .

(Suret-Canale, J., The Economic Balance. Sheet of french Colonialism in West Africa, in Gutkind, C. W. and Waterman, p., African Social Studies, Heinemann, 1977, p. 128 .)

وهكذا نجد أن فترة الاستعمار ، كانت بداية إقامة عمليات للإنتاج الجديد ، ووجود فئات اجتماعية جديدة . ومع انتشار عملية بيع المحاصيل نقدا وقيام عملية "الفلاحة" (peasantisation) ، حدث مع هذه العملية بديل غريب ، هو ظهور إنتاج بدائى فى القرن التاسع عشر وبداية العشرينات ، وتحول علم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى "العمال" و"الفلاحين" وأثناء ذلك ظهرت نظريات علم الاجتماع التى كانت تجد فى ذلك البهار الذى يجذبها للعمل ، وكان عليها أن تنتقل من فكر دول العالم الثالث وبدائيتهم ، إلى إبدال هذا الرأى بآخر يتفق وحقيقة التنمية الرأسمالية . وأحد هذه التحولات فى التنظير للتنمية ، يشمل المعرفة المتزايدة ، بالرغم من وجود ثقافات مختلفة ، فإن مواطنى الريف فى دول العالم الثالث ، قد أصبحوا مشاركين فى السوق العالمى للزراعة والسلع والعمالة .

السوق – طريقنا وطريقهم :

إحدى الطرق التى يمكن بها أن تفهم عملية التغير من الإنتاج المعيشى إلى الإنتاج للسوق ، هو أن تفكر فى فكرة اجتماعية إلى حد ما صعبة ، إلا أنها أساسية ، وهى طريقة معيشتنا ، وتنظيم مجتمعنا ، ولم تكن الطريقة الوحيدة أو الأفضل ، بل إنها مجرد شكل من أشكال المجتمع ، نما عن طريق القوم الذين يعيشون فى شمال أوربا ، المركز لهذه الاستعدادات الإجتماعية والاقتصادية ، وهو "السوق" .

إن كلمة "السوق" لا تصف مكانا ، والعلوم الاجتماعية تستخدم هذه الكلمة ، لتشير بها إلى طريقة توزيع البضائع والخدمات فى المجتمع وإنها تشمل الفكرة العامة للبيع والشراء .

وهذا يعنى أنه لابد من وجود أشياء تباع وتشترى . كما يجب إيجاد "احتياج" للشراء والبيع ، بمعنى أن يكون هناك نوع من تقسيم العمال حيث توجد تخصصات مختلفة . كما أن هناك تقسيم فى العمل ، ومن ثم وجود تبادل ممكن حدوثه داخل السوق . ولكن ينبغى أن تلاحظ وجود التوزيع فى المجتمعات الأخرى بطريقة ميكانيكية اجتماعية ، وعلى سبيل المثال إما بطرق رسمية أو أخلاقية . وسوف نتحدث عن هذه الفكرة بالتفصيل فى هذا الفصل .

فإذا ما ذكرنا التسويق ، هناك ضرورة للتوزيع ، يصاحبها أفكار فى الأسعار ، والمنافسة والأرباح . فالسوق يتطلب بعض الأفكار ، وهى الحصول على أفضل الأسعار أو أفضل السلع التى نقدرها أو نقيمها ، سواء كان ذلك شيئا ما أو عملنا نفسه ، وإلى حد ما فالسعر يعكس توازنا بين العرض والطلب ، ويصف رجال الاقتصاد هذه العملية بأنها عملية البيع والشراء ، للوصول إلى سعر . فالأفراد يعبرون عن "تفضيلهم الموضوعى" والذى يعنى التعبير عن احتياجاتهم ورغباتهم فى الحصول على أشياء أو خدمات خلال ما يقدم أو يعرض فى السوق .

والآن وبالرغم من أن معظم هذه الأفكار مألوفة أو معروفة للجميع ، وتبدو كما لو كانت طبيعية ، إلا أنها هامة ، لمعرفة الواقع ، فإنها ليست طبيعية ، ولا هى نتاج إعداد المجتمع للحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى فى غرب أوربا . وفى الواقع فإنك لو فكرت فيها ، فلن تجد كل المعاملات التجارية تتخذ هذا الشكل فى غرب أوربا أو أمريكاالشمالية الآن . فالدرجة التى يمكنهم أن يتوقعوها هى : القيام بالمناظرات السياسية المستثمرة . وعلى سبيل المثال ، نجد فى انجلترا أن حزب المحافظين يهتم كثيرا بالسوق ، بينما حزب العمال يرى أن التعليم والصحة لابد وأن تعادل التجارة وتكون فى متناول كل شخص ، ولا تعتمد على القدرة على الدفع

وعلى سبيل المثال فإن المعاملات غير الخاصة بالسوق ، هى التبرع بالدم . ففى انجلترا الشعب يعطى ويأخذ الدم ، وليست هناك فكرة الدفع للمتبرع أو المحتاج للدم . وتبدو لنا أن فكرة بيع الدم ، أو زراعة أى عضو ، ربما تبدو غريبة أو بغيضة . ويتاجر الشعب فى كثير من البلاد فى بيع وشراء أعضاء الجسم أو الدم ، مثلها كمثل السلع فى البيع والشراء . وهى تجارة موجودة على نطاق عالمى . وليس هناك سبب فى عدم وجودها ، ماعدا داخل انجلترا ، إذ أن هناك قراراً سياسياً وأخلاقياً ، لتظل مثل هذه الأمور بعيدة عن السوق .

وفى مجتمعات أخرى فى الماضى والحاضر ، بقيت أشياء كثيرة – عن الحياة – خارج هذا المجال الخاص بالتسويق والتبادل . وفى الواقع فإن معظم الأشياء المتبادلة تتم فى المجتمعات الرأسمالية ، أما فى مجتمعات أخرى تجد العكس ، لأن معظم المبادلات بل أغلبها توجد خارج السوق .

وفى هذه الحالات ، أن القاعدة التى يتم عليها التبادل ، تعد قاعدة "أخلاقية" عن أنها "اقتصادية" ، وهى نقطة جذبت اهتمام "دوركايم" عندما تحدث عن تأثير قوة الأخلاق على سلوك الناس ، ويشابه ذلك "ماكس ڤيبر" فى مناقشته فى التنمية وأخلاق البروتستانت ومقارنتها بالعقلانية ، وهو ما يقارنه بالسوق ، والذى يسميه العلاقات غير العقلانية ، وغير التسويقية .

وإذا فكرت تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا فى معظم المناطق الريفية فى دول العالم الثالث خلال فترة المائة وخمسون سنة الأخيرة ، فإنك ترى تدميرا للعلاقات غير التسويقية (non - market) ويحل محلها السوق . وينبغى أن نضع فى اعتبارنا أنها عبارة عن تسهيل أو تيسير ، حيث نجد فى كثير من المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، أن هذه العلاقات ، علاقات الإنتاج والاستهلاك ثابتة (عمل المرأة فى المنزل يتم لأسباب أخلاقية) .

التبادل التجارى ، وعدم التبادل التجارى والريف المتغير

لكى نفهم اجتماعيا ، التغير فى المجتمعات الريفية ، ينبغى أن نكون على دراية بكل أنواع الإنتاج المختلط والمؤقت أو الإنتقالى ، والعلاقات المتبادلة والموجودة إلى جانبهم . وعلى سبيل المثال ، قد يقوم جماعة بأداء بعض المهام معا دون مقابل ، لأن هناك واجب للمجتمع لابد من القيام به كمجموعة . وفى نفس المجتمع (community) نجد قوما يساومون مع بعضهم البعض على مبالغ بسيطة من أجل العمل ، لأن هذا النوع من العمل (كبيع المحاصيل نقدا مثلا) يُعد داخل مملكة السوق . (أنظر إطار ٥ – ٣)

إطار ٥ – ٣ العلاقات الخاصة بالسوق وغير السوق

هناك مجال لا توجد فيه العلاقات والعناصر الخاصة بالسوق وغير السوق واضحة ، كالعمل الخاص بالأسرة ، كما أوضحت فى الفصل الثانى . والمنتجون الزراعيون يستخدمون دائما ربات البيوت فى الإنتاج دون تحديد قيمة أو أثمان للسوق – فهم دائما يعملون للحصول على الكفاية . (وتختلف الكفاية من مجتمع إلى آخر) والخليط من الأسعار فى السوق من

الإنتاج المنزلى وغير المنزلى ، سواء كان للاستهلاك أو للإنتاج فإنه ينمو على أى حال ، معتمدا على الطريقة التى يرتبط بها المجتمع بالنسق العالمى .

ففى "دارفور" فى غرب السودان ، نجد قبائل تُدْعى (الفير) (Fur) ، يضعون فاصلاً مميزاً بين العمل فى غير الأسواق (العمل الذى يؤدى عن طريق الحفلات من أجل تبادل البيرة والغذاء) والسوق والإجراءات الداخلية (الشراء والبيع للسلع مثل السكر والمنتجات التى تباع نقدا) وهناك قواعد أخلاقية صارمة ، تفصل بين الأثنين . وفى بعض الأحيان يستغل دخيل ميزة هذا الفصل ، كما فى الحالة الآتية ... عام ١٩٦١ ...

كان أحد التجار العرب الذى دأب على زيارة المناطق الشمالية قرب جبال "مارا" طلب السماح له بالإقامة فى قرية فى موسم المطر ، وطلب قطعة أرض ليزرع الطماطم ، وأحضر زوجته واستقر معها فى كوخ ، ثم اشترى قطعة أرض من الأراضى المنخفضة ... حيث الثمن البسيط جدا ... وقامت زوجته بإنتاج البيرة ، وكانت هذه البيرة تجذب فرق العمال ، حيث كانوا يقومون بزراعة الطماطم ، دون أى معنى واضح لشكل العمالة ، أما بالنسبة لهذا الرجل فإنه يمثل مدخلات ، ولذا فقد أنتج أكبر محصول للطماطم ، فجففها ونقلها إلى "الفاشر" للبيع ... ومستثمرا ٥ جنيهات استرلينى لكل عيار أو مكيال "ميلت" (milt) أى (الدخن) (نبات يشبه الشعير) ، وحصل فى مقابل ذلك على عائد يساوى ١٠٠ جنيه استرلينى من أجل الطماطم التى زرعها .

(Barth, F., Economic spheres in Darfur, in Firth, R. (ed.). Theries in Economic Anthropology, Tavistock, 1970, p. 171.)

هذا المثال يوضح كيف أن النسق غير الخاص بالسوق ، يمكن أن يرتبط بنظام النسق الكبير ، وذلك عن طريق نشاط أمثال هؤلاء الملتزمين أو المقاولين . (والملتزم هو الذى يعمل بين شيئين أو من يقوم بالعمل فى محيطى التبادل)

مدرستان للفكر عن العلاقة أو الاتصال :

منذ عدة سنوات ، وجدت نظريتان متنافستان ، حاولت كل منهما شرح أوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعات الخاصة بالسوق ، وغير الخاصة بالسوق . ومن خلال هاتين النظريتين، فقد بدا أن الطريق لربط النمطين ، كان من خلال عمليات التعليم و (والتغير الفنى) . وهو

السبب فى طرقها المختلفة ، وكلتا النظريتين اللتين عند كل منهما اكثر أو أقل من الأفكار الواضحة ، عن (البدائية) . إن وجهى المناقشة معروفان بإسم (الواقعية) و (الشكلية)

الواقعية : (Substantivism)

لهؤلاء الواقعيين شرح للطرق المختلفة ، والتى يقوم بها الناس من إنتاج وتوزيع يرجع إلى معتقداتهم الأخلاقية . فالفلاحون والرعاة ينظمون إنتاجهم طبقا للتقاليد . وعلى النقيض فإن الدول المتقدمة بالنسبة لهذا القرار ، هو نتاج حسابات عقلانية . وسوف نسترجع هنا ما أكد عليه "دوركايم" ، وما ذكره عن دور المعتقدات الأخلاقية ، وقيم الإنسان فى مجتمعه . وهذه المدرسة من الفكر بكل تأكيد تمتد جذورها فى علم الاجتماع الدوركاييمى ، معتقدا أن التوزيع والاستهلاك فى المجتمعات غير الأوربية ، هو رد فعل منظم لما تمليه الأخلاق ، والأجزاء الآتية سوف تعطيك فكرة عن نظرة هذه المدرسة لهذه المشكلة :

(... هناك طريقان للوصول بهما للثراء ، فالاحتياجات سهل اشباعها ، إما بالإنتاج الوفير أو الرغبة فى القلة . والمفهوم المألوف ... يجعل الاستهلاك مناسبا لاقتصاديات السوق : وأن احتياجات الإنسان كثيرة ، وليس القول قاطعا بأن وسائله قليلة ، بالرغم من قدرته على تحسينها . وهكذا نجد أن الفجوة بين الوسائل والغايات يمكن تضييقها عن طريق الإنتاج الصناعى ، وعلى الأقل إلى نقطة الوصول إلى "البضائع الملحة أوالضرورية" لكى تصبح متوفرة أيضا هناك . إلا أنه يوجد كذلك (طريق زن) (Zen road) * للغنى ، إن الانحراف عن الأصل أو المقدمات إلى حد ما مختلف عن طريقنا : لأن احتياجات الإنسان المادية محدودة وقليلة ، وأن الوسائل الفنية لا تتغير ، إلا أنها كافية بشكل عام . وإذا ما تبنينا استراتيجية "زن" (Zen) أصبح فى استطاعة الناس الاستمتاع بوفرة مادية ، مع وجود مستوى معيشى منخفض .

(Sahlins, M., stone Age Economics, Tavistock Publications, 1974, p. 2.)

---

* كلمة "زن" ترجع إلى الزنية ، وهى فرقة بوذية ، لها أسلوبها فى الحياة ، القائم على التأمل ، وأن التأمل هو أسهل الطرق لمعرفة الحقيقة .

إطار ٥ – ٤ بعض الروابط أو الاتصالات

ربما تفضل أن تلقى نظرة على هذا المقتطف مرة أخرى ، عندما تقرأ عن صعوبات تعريف التنمية فى الفصل التاسع ، لأن ما يسميه (ساهلين) (sahlins) باستراتيجية "زن" إنها تشبه تماما ، ما يرد فى أفكار الحركة الخضراء .

مما سبق يتضح لك أن ما هو مهم ، هو ما يقرره الناس من احتياجات للإنتاج – وبكلمات أخرى ، ما هى القيمة التى يمكن تحديدها على أنها "الاحتياجات غير المحدودة" ؟ فى هذا الرأى كلمة "وفرة" وكلمة "كاف" هما فكرتان مترادفتان وتختلفان باختلاف المجتمعات ، طبقا لقيم هذه المجتمعات .

وهذا يعنى فى الممارسة ، أن القواعد الحاكمة هى ما سوف ننتجه وما هى الكمية التى ننتجها ؟ ومن سيقوم بإنتاجها ؟ ومن سيتلقاها ؟ وماهى حصته من الإنتاج ؟ كل هذا هو نتاج "التقاليد" ، ولم يكونوا نتاج قرارات موجهة من أجل الربح فى السوق . ويقال إن مثل هذه المجتمعات ، تحكمها التقاليد ، وبالتالى فهم ليسوا نتاج قرارات موجهة من أجل الربح فى السوق . ويقال أن مثل هذه المجتمعات تحكمها التقاليد وبالتالى فإنها ليست مجددة ، ويمكن أن تكون منعزلة وغير مشجعة للتغير . والآن وعلى الرغم من أن النسب تختلف فى التغير داخل المجتمعات . (وعلى سبيل المثال : إن الأماكن المرتفعة فى "بابوا" فى غينيا الجديدة وفى الأمازون) كانت حتى وقت قريب منعزلة ، وكثير من هذه الاستنتاجات ، ترجع إلى فروض علماء الانثروبولوجيا الذين درسوها وليس للواقع . ونستطيع أن نأخذ مثالا لدراسة انثروبولوجية كى نوضح هذه النقطة .

فى بداية سنوات هذا القرن ، درس "مالينوفسكى" (١٨٨٤ – ١٩٤٢) ، وبعد ذلك كتب عن سكان "التروبياند" بغينيا الجديدة ، وقدم صورة عنهم كمجتمع منعزل ، ومعتمد على ذاته . ولكنه كان يختار أو ينتقى فى ملاحظاته . ولقد أعطى اهتماما كبيرا لطبيعتهم ، كما ألقى كل الاهتمام لقواعده الأخلاقية . فرجل "التروبيان" ... لا يسعى وراء رغباته . وإنما عن طريق مجموعة من القوى التقليدية المعقدة ، والواجبات والإلتزامات والمعتقدات فى السحر والطموح الاجتماعى والمظهرية ، هو يريد ، إذا أراد أن يكون رجلا ، أن يحصل على مركز اجتماعى مرموق ، كأن يكون جناينى ماهر" أو عامل ممتاز بوجه عام" Malinowski, B.,..

Argonauts of the Western Pacific, Rontledge and Kegan Paul, 1961 [First published 1922], p. 62.)

Malinowski, B., Argonauts of the Western Pacific, Rontledge and Kegan Paul, 1961 [First published 1922], p. 62.)

إلا أنه فشل فى أن يخبر قرائه فى المتن الرئيسى لكتابه (بالرغم من أنه ذكرها فى المقدمة) عن وجود النباتات التجارية إلى جانب البعثات التبشيرية على الجزيرة ، والتأثير الخاص والكبير للعمل فى المزارع على علاقة أهل الجزيرة الإجتماعية والقول بأنهم منعزلون قول خاطىء لأنهم لم يعتادوا ذلك ، وأن مجتمعهم مجتمع ذاتى (a self - contained society) إلا أنه قدم جوهر ما يمكن أن يقال عن أهل هذه الجزيرة وهو يعتقد فى الواقع أن المجتمعات المتكاملة integrated societies ، قومها سعداء

(Coral Gardens and their Magic, George Allen and Unwin, 1922, p 381.)

وإن كل سلوك اجتماعى ، يجب أن يحلل من وجهة نظر الأداء الوظيفى (loc. cit., p. 379) بالإضافة إلى ما ذكره من أن قرارات أهل هذه الجزيرة عن الإنتاج والتوزيع ، تتأثر بقيمهم ، إلا أنه لم يسأل سواء أكان الفرد يتقبل هذه القيم أم لا ، أو أن هذه القيم فى صالح بعض أهل الجزيرة ، ولو كانت لها مضار على الأخرين . كما أنه لم يعط تقريرا يوضح أن التوتر أو الشدة من أجل تغير المجتمع . (وملاحظة على ذلك ، كان المجتمع منقسما انقساما عميقا وبعنف) ، فى حين أن "مالينوفسكى" يرى أن هذه المجتمعات تختلف اختلافا جذريا عن المجتمعات التى يسود فيها السوق ، والسؤال الهام بالنسبة لنا ، سواء كانت النظرية الاقتصادية والاجتماعية قائمة على تحليل مجتمعات السوق أو هل يمكن استخدامها لتحليل مجتمعات مثل مجتمعات جزيرة (تروبياند) (Trobriands) ، حيث يسود الجانب الأخلاقى ؟

وأخيرا ظهر هذا الكاتب "كارل بولانى" (Karl Polanyi) (١٨٨٦ – ١٩٦٤) ، الذى يرى أن النظرية الاقتصادية الاجتماعية غير مناسبة قطعيا لفهم المجتمعات التى لا تهتم بالسوق (non-market societies) إذ أن مثل هذه النظرية ، تركز على المشاكل ، مثل ، كيف أن عوامل الإنتاج كالأرض والعمل ورأس المال يمكن جميعها أن تستخدم بكفاءة عالية . ولقد نشأت فى بداية القرن التاسع عشر كى تخدم احتياجات المجتمع الأوربى ، حيث يكتسب الناس عيشهم عن طريق البيع والشراء فى السوق – وبكلمات أخرى ، إذا ما قورنت باليوم ، فما عليك إلا أن تبيع وتشترى لتعيش .

وعلى النقيض فإن كثيرا من الدول غير الرأسمالية ، لم تخترع ولم تر الحاجة للأشياء كثيرا كالنقود والأسواق ، أو حتى تقسيما واضحا للعمالة . أما فى الغرب ، حيث المجتمعات الرأسمالية ، فهناك قرارات هامة تتخذ ، حتى على كمية الأرض المستخدمة ، والإمداد بالعمال ، والحاجة إلى الإمداد بالسلع والخدمات ، وجميعها تنظم من خلال ميكانيكية السوق . فإذا ما اختفت مثل هذه الميكانيزمات أو الأساليب الخاصة بالسوق ، فإنه لابد من الحصول على التوازن لطرق أخرى –عن طريق الأخلاقيات والطقوس – وتلك هى "الحقائق الواقعية" للمجتمع والاقتصاد الذى يعطى اسمه لهذه المدرسة من الفكر .

إن هذا المدخل يؤكد على دور القيم والأخلاقيات الدافعة والأساسية فى دفع الإنتاج البشرى وتوزيعه ، وهى التى تحث الإنسان على دافع الربح ، وهى وثيقة الارتباط بما شرح فى الفصل الأول ، واعتبرت أن مشكلة التنمية ، هى الاهتمام بإحداث التغير فى قيم البشر .

الشكلية (formalism) :

أما المدرسة المناقضة لذلك فهى (الشكلية) ، وتقف على النقيض مع الواقعية . وهناك متغيرات لهذا المدخل . ففى أحد أطراف النقيض لهذا الرأى ، نجد أعمال "رايموند فيرث" (Raymond Firth) الذى يرى أن هناك على الأقل نمطين للسلوك البشرى – أحدهما "إقتصادى" يمكن تحليله مستخدمين النظريات الاقتصادية ، أما السلوك الاجتماعى فى الغالب لا يمكن تحليله بهذه الطريقة . وهناك مجالات يجد الإنسان نفسه قادرا على الاختيار منها وخاصة فيما يتعلق بالمعتقدات الأخلاقية . مثل هذه الاختيارات ليست نتاج أفضليات موضوعية عبر عنها خلال السوق ، وفى هذه الحالات يظل المجال الأخلاقى سائدا مانعا ، والاتجاه للتعليم على حساب الآخرين . وهكذا نجد أن ما يشير إليه "دوركايم" (اليقظة الكلية) ، كمصدر للسلوك الاجتماعى الإنسانى ، حيث يحافظ على المجتمع وأخلاقياته . ونجد أن هناك بعض العلاقات الاجتماعية مازالت موجودة ، وهى نتيجة تبادلات من خلال السوق ، والتى يمكن أن نطلق عليها النظرية الاقتصادية .

هذا هو النوع الضعيف من الشكليات ، والذى يسمح بأن نرى النظرية الاقتصادية على أنها مناسبة لبعض وليست لكل السلوك الاجتماعى . أما النظرية الاقتصادية الغربية فإنها تشرح جزءا من السلوك الاجتماعى فقط (انظر إطار ٥ – ٥)

إطار ٥ – ٥ العادة ليست كل القصة :

"يقال إن الطاعة للعادات الاجتماعية تمنع الحسابات العقلانية . ولكن ليست هذه هى القضية . ففى بعض المجتمعات الأشد بدائية ، نجد نقاشا عن البدائل من أجل استخدام المصادر الطبيعية ، والتى لها مزايا اقتصادية مرادفة للتغير مع حزب ضد آخر ، واختيار نوعية البضائع فى التبادل بين الجماعات ، آخذين فى الاعتبار الربح ، إما عن طريق أشياء مادية أو اكتساب بضائع ذات سمعة .

(firth, R., in Firth, R. and Yamey, B. (eds.), Capital, Savings and Crdit in Peasant Societies, Allen and Unwin, 1964, p. 31.)

وعلى طرف النقيض الآخر من هذه الشكلية ، يوجد علماء الاجتماع والانثروبولوجيون الذين يدعون أن كل الحياة الاجتماعية يمكن أن تفسر عن طريق النظرية الاقتصادية ، وأن كل سلوكياتنا ما هى إلا نتاج للحسابات ، وأننا جميعا نحاول معظم الوقت الحصول على أفضل المساوامات فى كل إطار فى حياتنا ، سواء كان فى رغيف العيش أو فى الحب . وهذا المدخل واضح للغاية فى كتاب "بلاو" (P. M. Blau)

(Exchange and Power in Social Life, John Wiley, 1964)

(التبادل والقوة فى الحياة الاجتماعية) والذى يستخدم المفاهيم مثل "الأسواق" و "العرض والطلب" و "السعر" ليصف طريقة الحصول على طلب وأساس القوة والسلطة فى كثير من مجالات الحياة الاجتماعية . فهو يرى أن الجنس البشرى إذا ما أثيرت دوافعه كى يحصل على مكافآت أو "رأس المال الاجتماعى" (يقصد المكانة الاجتماعية) للحصول على جوائز . وهكذا على سبيل المثال ، إذا ما سألت شخصا ما طالبا النصيحة فى موقف معين ، فإنك تكون مدينا له . وبالتالى إما تتفق معه أو تسانده فى مواقف خاصة به . إنه ثمن النصيحة أو المقابل الذى تدفعه له وهى قوة سيطرته عليك .

ما علاقة هذا مع الريفيين ؟

كل ذلك قد يكون بعيدا عن المشكلة التى بدأنا بها – كيف نفهم المجتمع الريفى ودوره فى علميات التنمية ؟ إن حلقة الإتصال هنا هى فى فهمنا لدوافع أهل الريف ، وكيف توصلوا إلى تنظيم الإنتاج وتوزيعه تقليديا . وهذا ممكن فهمه من علاقة أهل الريف عندما يشرعون فى

إقامة علاقات اجتماعية واقتصادية مع النسق العالمى الاجتماعى والاقتصادى . ففى واقعية "دوركايم" التقليدية ، المشكلة هى تغير قيم أهل الريف ليستجيبوا لحوافز السوق ، بدلا من القيم التقليدية . أما هؤلاء الذين يعملون فى إطار الشكلية . فالإجابة مثيرة للدهشة ، وليست مشابهة أو مطابقة فى الممارسة ، فهى طريقة حث الريفيين على تطبيق إحساسهم الاقتصادى المتقدم لميزات الأسعار ، وعلى سبيل المثال الرغبة فى امتياز اجتماعى أو دينى .

وفى ضوء سياسة التنمية اليومية – يوم بيوم – فإن النتائج أو العائد واحد لتشجيع أهل الريف لمعرفة أن اهتماماتهم المفضلة تتوقف على تبنى قيم المجتمع الرأسمالى ، وهذا يتطلب أن لا ينتجوا فقط من أجل الاستهلاك المحلى ، ولكن من أجل السوق ، مستخدمين سيولة الدخل لشراء متطلباتهم من أسواق أخرى .

تطبيق السياسة :

هذان الرأيان بخصوص مشكلة التنمية الريفية وأثرها فى السياسة لعدة سنوات . (أنظر إطار ٥ – ٦) واستمر التأثير إلى حد ما لأنهما نتاج دقيق أو تحليل دقيق لما يحدث فى كثير من المجتمعات الريفية فى دول العالم الثالث ، بل تظل وجهتا النظر غير كافيتين .

إطار ٥ – ٦ الثقافة والتنمية التكنولوجية

"من الأشياء التى تثير الدهشة ... أن نجد كثيرا من الناس فى الدول الأقل تقدما تكنولوجيا مترددين أو غير قادرين على تقبل التغير بنفس السهولة التى نحن نفعلها . فحكمة التقاليد لها وزنها على عمل هؤلاء الناس ، والرغبة فى "الجديد" و "الأفضل" ربما تجعل هؤلاء الناس دائما على حذر ، ولا تثير رغبتهم فى التجارب . فالرغبة فى التنمية وإرادة التغير لا وجود لهما بين هؤلاء الناس ... فالعوامل التى تحدد مثل هذه الدوافع ، عوامل ثقافية واجتماعية ونفسية ، ولها جذور فى نسق القيم ... بل ربما ترتبط بطبيعة العلاقات الاجتماعية بينهم كأعضاء فى الجماعة ، ذات مشاكل خاصة بالمكانة والدور ... و ربما توجد بين مجموعة عريضة فى نصوص ليست فنية ... ولقد تزايدت العناصر البشرية فى السنوات الأخيرة ، فى التنمية التكنولوجية ، وقد لوحظ أن الأشخاص العاملين فى برامج المساعدات العالمية يكتسبون أكثر إذا استطاعوا فهم النواحى الثقافية والاجتماعية للجماعات التى يبعثون إليها .
(foster, G., Traditional Cultures and the Impact of Technological change, Harper and Row, New York, 1962, pp. 4 - 5.)

وبالرغم من أن الثقافة لها أهميتها فإن هذه النظرة ضيقة ، إذ ترى التنمية الريفية على أنها "هم" يتعلمون "منا" . فهم يرون أن التنمية لها علاقة بقيم التغير ، والتى تحدث من خلال عمليات التعليم أو تنمية المجتمع ، وتفشل فى النظر لعمليات تغير القيم كنتاج ليس فقط للتغير فى ضمير الفرد ، ولكن لليقظة داخل إطار العمل لتنمية العلاقة التاريخية بين المجتمعات الريفية وبقية الأنساق العالمية . (أنظر إطار ٥ – ٧) .

إطار ٥ – ٧ إما / أو فى النظرية

هناك نقطة هامة حول مناهج البحث والتنظير ، فالخلاف بين الواقعية والشكلية يوضح أن "إما / أو" التناقض بين خواص التنظير ، وربما تكون مضللة حقا ، كما سنرى أن النتائج التى يمكن الوصول إليها عن طريق التنمية الجديدة ، والتى تتبع الماركسية التقليدية فى علم الاجتماع . وهى خلاف النظريتين السابقتين فإن التناقض والتعقيد للمشكلة يأتى عن طريق استخدام نظرية أخرى ، وهى ظاهريا نظرية متناقضة مع الماركسية – والماركسيون يقولون أن المشكلة قد طرحت فى الطريق الخطأ . إن جدول الأعمال خاطىء ومليء بالأسئلة الموضوعة خطأ . فإذا ما سألت سؤالا خاطئا ، فإنك تتلقى إجابة خاطئة .

الماركسية الاجتماعية والتغير الريفى :

إن تحليل التغير الريفى والمجتمع الزراعى ، قد أتخذ بتفصيل موسع بواسطة علماء الاجتماع ، فى أبحاثهم بأفكار "كارل ماركس" أن التعليق الآتى عن "فرانكنبرج" (Frankenberg) قد لخص الأسئلة التى فكروا فى أنها يجب أن تسأل .

والأسئلة الرئيسية هى : ماذا يُنتج ، وبواسطة من من الجماعات يُنتج ؟ كيف تُنظم الجماعات وبم تُنظم ؟ ما هو هدف الإنتاج (استخدام أو تبادل ؟) كيف تكون الصراعات التى تحدث فى عمليات الإنتاج ؟ ما هو البديل الذى يمكن أن يعطى لوقت الإنتاج ؟

فإذا ما سألنا تلك الأسئلة المتخصصة الاجتماعية عن تكنولوجيا التغير ، فإن شيئين يجب اتباعهما :

أولا : سوف نعيد اكتشاف العلاقات المتداخلة للتكنولوجيا والمجتمع ، وهى علاقات معقدة للغاية وليست مفاجأة .

ثانيا : المقارنة الإحصائية البعيدة لتطور الثقافة يمكن أن تنقل على أنها دينامية التغير ، فالمبادرة داخل المجتمعات الفردية تؤدى فى النهاية إلى مزيد من التحريف للنظرية الخاصة بالتطور الاجتماعى .

(Frankenberg, R., Economic Anthropology : one anthropologist's view, in firth, R. (ed.), 1979 , p. 84.)

الملخص :

فى هذا الفصل رأينا بعضا من طرق ما قبل الرأسمالية والمجتمعات التى لا تهتم بالسوق، وكان بداية اتصالها بالسوق من خلال الاستعمار . وناقشنا مدرستين من الفكر والفهم الاجتماعى لهذا الاتصال ورأينا الماركسيين يقولون أن كليهما يسأل الأسئلة الخاطئة .

وفى الفصل التالى سنرى أسئلة يطرحها الماركسيون وإجاباتها .

openkandl.com

الفصل السادس

التنمية الريفية والفروق الاجتماعية

إن المشكلة الخاصة بالمدخلين ، والتى سبق طرحها فى الفصل السابق ، قد أعطتنا أفكارا مفيدة . ولكنهما لم يأخذا فى الاعتبار التغيرات التاريخية ، وتميل إلى القول بأن المجتمعات التى تهتم بها مازالت منعزلة عن بقية العالم .

وفى الواقع أن المجتمعات الريفية تعد جزءاً من النسق العالمى ، وكذلك التاريخ العالمى .

إن المسألة لا تعنى أن ذلك مجتمع أم لا ، ولكنه جزء من النسق الكبير (كما هو موجود فى المزارع الإفريقية وأمريكا اللاتينية) أو لا يبدو واضحا كما هو الحال فى بعض أجزاء من "بابويا" بغينيا الجديدة ، بحيث يستخدم بعض الناس الأوانى والطاسات من صنع "تايوان" رغم عزلتهم الشديدة .

إن المدخل الجديد لعلم الاجتماع فى دراسته للمجتمعات الريفية ، كان له تأثيره خلال السبعينات كنتيجة لنقد كل من نظرية التحديث ونظرية التبعية ، حيث أصبحت غير مقنعة (dissatisfaction) مع كل من الواقعية والشكية ، كما أنها تفرعت إلى عدة اتجاهات وعلى وجه الخصوص ، قد ركزت اهتماها على الأسئلة التالية :

(١) كيف يستطيع المجتمع الريفى أن يرتبط بالمجتمع الكبير ؟ هل هناك طريق واحد أو عدة طرق ؟ والمشكلة أحيانا توصف على أنها مشكلة فى الصياغة .

(٢) هل توجد طبقات فى المجتمع الريفى ؟ وهل تتكون الطبقات فى المجتمع الريفى ؟ هل هناك اختلافات أخرى (تطفو وتوجد خلافات بين جماعات من الناس ؟) فى مثل هذه المجتمعات ، من هو الأهم من الطبقات ؟ وتسمى هذه أحيانا مشكلة الخلافات والفروق .

(٣) كيف يدار أو ينظم شغل المنزل ؟ هل العاملون فى المنزل يعملون بدون أجر ويؤثرون على أسعار السوق ، وخاصة فى بيع المحاصيل نقداً ؟ وهل تجعلها أرخص لأنهم لا يأخذون أجراً ؟ كيف يوزع الدخل فى المنازل الريفية ؟

إن هذه الأسئلة هامة للغاية بالنسبة لعلم اجتماع التنمية ، وسوف ندرس أو نختبر ذلك .

المجتمع الريفى والنسق العالمى : السيد والفلاح والدولة .

كما يتوقع المرء أن هناك طرقا مختلفة ، والتى من خلالها يدخل المجتمع الريفى مع المجتمع الكبير فى علاقة احتواء ، ولدينا نموذجان متضادان لذلك ، الحالة الأولى أرض الجزيرة (إطار ٥ – ١) والثانية التاجر العربى (إطار ٥ – ٣) .

ونلاحظ دائما أن الاتصال بالنسق العالمى يتحقق من خلال القوة . وعلى سبيل المثال : إن الحكومات الاستعمارية تجعل دائما مواطنى الريف يدفعون الضرائب . (أنظر إطار ٥ – ٢) وهذه الضرائب لابد من سدادها نقدا ، وهذه النقود السائلة يحصلون عليها من العمل فى المزارع الأوربية ، أو من المدن الصناعية ، أو بزراعة محاصيل الصادرات فى مزارع الفلاحين والطلب على مثل هذه الأعمال ، أدى إلى سحب العمال من المزارع الأسرية . وفى بعض الحالات مثل مواطنى "البمبا" (Bemba) أو ما تعرف الآن "بزامبيا" . إن اضمحلال الإنتاج الذى ظهر فى الغذاء غير الكافى . والضغط لإيجاد عمالة فى المزارع من أجل الزراعة أو الصناعة أو زراعة المحاصيل للعائد النقدى (وأسعارها فى بعض الأحيان تكون منخفضة بطريقة مصطنعة من جانب الحكومة لسيطرتها على أسعار المنتجات) . كل هذا كان له دائما الأثر على المواطنين والزراعيين . وفى بعض الحالات ، كان التأثير مختلفا . وعلى سبيل المثال : بدأ كثير من الرجال بزراعة البن على المرتفعات فى غينيا الجديدة ، لأن البن محصول مربح . وكان تأثير ذلك هو غنى بعض الرجال ، الذين يعتمد دخلهم على زراعة البن ، بينما النساء اللائى يقمن بمعظم العمل متحملات فوق طاقتهن فى سبيل القليل – بينما الرجال ينفقون دخولهم العالية على الرفاهية ، وهنا يعكس ثمن البن العمالة الرخيصة أو غير المدفوعة للنساء .

هناك بعض المشاريع التنموية التى لها نفس التأثير . ففى مشاريع "جامبيا" (Gambia) التى تهدف إلى زيادة الغذاء الرئيسى القومى "الأرز" ، نتج عن هذه المشاريع خسارة المرأة فى أحقيتها فى الأرض بينما حصل الرجال فى المجتمع على سيطرة كبيرة على الأرض ودخول أكبر مما كانت عليه سابقا . وفى أجزاء من السودان أدى التوسع المكثف فى زراعة الحبوب من أجل التصدير إلى أن فقدت الزراعة الصغيرة جزءا كبيرا من الأرض كما فقد الرعاة أراضى كثيرة للرعى . وكان رد الفعل لدى الناس تجاه هذا التغير أن قام كثير من

العمال بالهجرة تاركين أرضهم معظم أو طوال السنة ، مستبدلين الزراعة بأعمال هامشية فى مراكز حضرية ، أو فى المزارع الجديدة .

والمشترك فى كل هذه العمليات أن الريفيين يفقدون السيطرة على إصدار كل أو بعض القرارات الخاصة بالإنتاج . وهى غالبا ما تكون نتيجة لقرارات الدولة . كما تحول المنتجون الصغار "الإنتاج المعيشى" إلى "أنماط اجتماعية" جديدة . ومن أهم هذه الأنماط "الفلاحون" ولكن ما هو الفلاح ؟ ليس كل الناس فى المناطق الريفية "فلاحين" . وسوف تكون علي خطأ إذا ما أخطأت معنى المصطلح العام "فلاح" (farmer) ، و "المزارع" (cultivator) وخصوصا عند استخدام مصطلح "فلاح" (peasant) فى علم الاجتماع . وأهم شىء عن الفلاحين (peasants) هى قدرتهم على أن ينتجوا ، أى لابد أن ينشأوا (they have to be created) فهم جزء من التغير الاجتماعى والتاريخى . فعندما تقدر الضرائب على المنتجين (subsistance producers) "الإنتاج المعيشى" عن طريق الدولة وتنتهى بأن يقدموا المحاصيل ليدفعوا الضرائب ، يصبحوا فلاحين (peasants). إن التحول من الاستقلال عن المزارع أو الزراعة إلى العلاقة مع الدولة هى التى تحدد "الفلاح" apeasant .

إن أهمية هذا التغير لا يفوتك عندما تصبح فلاحا فالإنتاج المعيشى جزء من المجتمع الكبير ، ويدخل فى طبقة جديدة وعلاقات ذات مكانة جديدة . ولكن ليس هذا كل شىء ، فمثل هؤلاء الناس يدخلون فى علاقات سياسية واقتصادية جديدة ، فهم من المتوقع أن يدفعوا ضرائب ، ويبيعوا المحاصيل ، ويمدوا بالعمالة ويدينوا بالولاء . ويمكنك أن تتذكر ذلك فى الفصل الثانى عندما تحدثنا عن أعمال "بارينجتون مور" فعنوان كتابه "السيد والفلاح فى صنع الدولة الحديثة" وهو يؤكد على أهمية هذه الرابطة الرئيسية . هذه العلاقة الرئيسية والتى تطورت فى عملية "الزراعة" وهى ليست سهلة فلقد أصبحت تركز على كثير من القضايا ، كالفوضى ، الاضرابات وحتى الحروب . (أنظر إطار ٦ – ١) .

إطار ٦ – ١ مقاومة المزارع

فى الستينات فى نيجيريا قام مزارعوا جوز الهند بالتمرد لأنهم كانوا يعتقدون أن السعر الذى يتقاضونه غير كاف . لأن الدولة كانت تدفع لهم سعرا أقل من السعر العالمى وتأخذ الفرق على أنه ضريبة . وظهرت ثورة عدم الرضا فى هجوم المزارعين على مكاتب

الحكومة والشخصيات الكبيرة . وفى الثورة الروسية عام ١٩١٧ ظهر فيها عدم رضا المزارعين ... وكانت محاولات الحكومة القيصرية ينتج عنها دائما الضغط على الأرض ، والاستدانة مع فقر شديد أكثر مما كان معتادا . وكانت هناك ثورات عام ١٩٠٢ ، ١٩٠٥ ، وأخيرا هاجم جيش المزارعين الروس محاربين ضد المانيا فى الحرب العالمية الأولى عندما رفض المزارعون الحفاظ على النظام الطبقى والذى لم يحقق لهم سوى استمرارية البؤس ولقد كتب إيرك وولف

Eric Wolf, Peasant Wars of the Twentieth Century (Faber, London, 1971.)

فى كتابه "حرب الفلاحين فى القرن العشرين" يظهر الثورات الرئيسية مثل التى حدثت فى المكسيك عام ١٩١٠ وفى روسيا عام ١٩١٧ وفى الصين عام ١٩٤٧ إلى جانب حدوثها فى كثير من دول العالم الثالث ، كانت قائمة على عدم الرضا للمزارعين ، إلى جانب الدور الذى تلعبه الصفوة المثقفة (intellectual) . وقد ثبت أن المزارعين قوة سياسية غاية فى الأهمية .

ليست كل معارضة للمزارعين تأخذ مثل هذا الشكل . فقد تبدو من رفض بسيط للإذعان لنصح الحكومة رافضين النصح من مهندسى الزراعة (مؤكدين الرأى الذى يقول بأن الفلاحين دائما محافظون ولا يستجيبون للدوافع الاقتصادية) . وتظهر الحركات الدينية الغامضة التى تنتقد ما يسمى "بالدولة الحديثة" وتنظر بتحسر دائما على ما فات على أنه "العصر الذهبى" والمستقبل وما يحمل من تضحية "كما فى أجزاء من الباسفيك ووسط أفريقيا" هذا إلى جانب السرقة والاختلاس من أملاك الدولة .

وهناك إذا طرق عديدة ومختلفة والتى بها يمكن أن يندمج الريفيون فى مجتمع واقتصاد أكبر ومن نتائج هذا الاندماج وجود عدم المساواة أو تبدأ عملية عدم المساواة فى الظهور أكثر من قبل .

إن المجتمعات الريفية لا تعنى وجود المساواة ... حيث توجد ظاهرة عدم المساواة فى هذه المجتمعات الريفية ، ويبدو عدم المساواة سواء فى خيرات الريف - البضائع - أو فى المكانة الاجتماعية ، حيث توجد دائما الفوارق الاجتماعية والاقتصادية على أساس الجنس ، والسن ، والثراء والمكانة الاجتماعية . وهناك أسئلة هامة : ماذا يحدث عندما يتصل المجتمع الريفى

بالمجتمع العالمى ؟ كيف يتفاعل مع عدم المساواة ؟ وكيف يكون هذا التفاعل أساسا لأشكال أخرى من عدم المساواة ؟

عدم المساواة فى تغير المجتمعات الريفية .

هناك مدخلان تقليديان للإجابة على أسئلة الفروق الاجتماعية فى المجتمع الريفى . فنجد أن عالم الأقتصاد الزراعى الروسى "الكساندر" (Alexander 1888 - 1939) وضع نظرياته عن الظروف أو الأحوال الروسية فى سنوات ما قبل الثورة . فهو يقول إنه بالرغم من وجود فوارق فى الثروة والدخل فى المجتمعات الريفية ، إلا نها لم تكن فروقا مطلقة . أما ما عكسته فهو الزيادة والنقصان فى العمالة فى مزرعة الأسرة طوال فترة وجودها (أنظر إطار ٦ – ٢) . وقد كان ذلك مرتبطا بنسق الملكية للأرض قبل الثورة الروسية . ومن خلال هذا النسق اعيد توزيع الأرض فى المجتمع القروى المحلى طبقا لاحتياجات الأسرة وحجمها . ونجد ما يشابه مثل هذا النظام ما هو موجود فى إرتريا فى شمال شرق أفريقيا .

إطار ٦ – ٢ تشيانوف (Cheyanov) والتنمية الريفية المنزلية :

الأسرة ليست بناء ثابتا ولكنها تتغير بصورة مستمرة عبر الزمن ... كوحدة اقتصادية ، فإذا ما كان هناك زوجان حديثا الزواج فهما يعتبران وحدتين للإنتاج فقط . ومع مرور الحياة وتعاقب الحمل والولادة وتواجد أفواه إضافية تطلب الطعام ... تتدهور الحالة نتيجة التهام عائد العمل ، وتصبح الأسرة فى مهب الريح إقتصاديا . ولكن الأطفال يكبرون ويساعدون فى أعمال إضافية (العناية بالحيوانات الصغيرة والمساعدة فى الحقل) وبمرور الوقت تزداد أهميتهم . ففى سن الثامنة يسهمون فى نصف وحدة إنتاج يسهم فيها الكبار – (أى نصف العمالة الكبيرة) – والأسرة التى تتكون من أب وأم واثنين من الأولاد فى سن المراهقة تعطى أربع وحدات كاملة من العمل . وبذلك نجد أن الأسرة فى تحسن ملحوظ وبعد ست وعشرين سنة نجد أن ٥.٢ من العمال.. يطعمون ٦.٩ من المستهلكين . وبعد ذلك تنقسم الأسرة متيحة فرصة لتكوين أسر جديدة وتمر بنفس المراحل . ويصبح الآباء مسنين تابعين غير منتجين وينضمون إلى الاتجاه المعاكس للأسرة من حيث العمل – أى أنهم يصبحون مستهلكين فقط – وعليهم أن يعولوهم .

(Worsley, P. M., 1986, p. 74.)

وعلى النقيض هناك تنظير – نظريون – آخرون يعتبرون أن هذه العوامل داخلية وأنها أقل أهمية على المدى البعيد من الفروق القائمة على ملكية الأرض ، ورأس المال . ويرى "لينين Lenin" – ١٨٧٠ – ١٩٢٤ – فى كتابه عن التنمية الرأسمالية فى روسيا أن المجتمعات الريفية تنمو بنفس الطريقة المشابهة لما يحدث فى القطاع الصناعى الرأسمالى . بمعنى آخر أن أصبح بعض الناس أثرياء ، وفلاحين رأسماليين ، ويسيطرون على مساحات كبيرة من الأرض مستخدمين الآلات والعمالة المؤجرة . وعلى النقيض كان هناك من يفقد أرضه من خلال مديونياته للأثرياء ، ومن ثم عليهم العمل من أجل الحصول على النقود نقدا كعمال فى المزارع النامية (وهو شبيه بما حدث فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر) (أنظر إطار ١ – ٣) . وأعتقد لينين أن مثل هذه العمليات سوف تستمر إلى أن يشبه البناء الاجتماعى الريفى النسق الطبقى والذى كان يراه الماركسيون على أنه التنمية المنطقية لنمو الرأسمالية وينقسمون إلى طبقتين كبيرتين البرجوازية "أو الرأسماليين" والبروليتاريا "أو العمال" مع وجود مصالح متناقضة .

إطار ٦ – ٣ لينين والفروق

وجهة نظر لينين عن نمو أو تطور عدم المساواة فى الريف عبارة عن تكرار لرأى ماركس الخاص بالتنمية وطبقة البلوريتاريا فى المجتمعات الرأسمالية . فهو يقول :

إن نسق العلاقات الاجتماعية – الاقتصادية بين المزارعين ... يظهر وجود كل هذه المتناقضات وهى موجودة فى صلب كل اقتصاد ونظام رأسمالى : المنافسة ، والصراع من أجل الاستقلال الاقتصادى ، والسيطرة على الأرض ... تركيز الإنتاج فى أيدى الأقليات ، ودفع الآخرين إلى طبقة البلوريتاريا ، واستغلالهم من خلال التاجر الوسيط وتأجير العمال الزراعيين

(Lenin, V. I., The Development of capitalism in Russia (1899, extract quoted in harriss, J. C. (ed), 1982, p. 130.)

والمشاكل تحدث لو أننا حاولنا تطبيق أحد هذه النماذج على ظروف أو حالات دول العالم الثالث . فعندما نحاول فهم التفاعلات بين المجتمع المحلى . والثقافة ونمو أشكال الرأسمالية مثلا فى أفريقيا أو فى أمريكا الجنوبية ، فنجد أن الصورة ليست واضحة .

ففى بعض الحالات تبدو الفروق واضحة فى المجتمع الزراعى البرجوازى والمجتمع الزراعى البروليتارى . ففى السودان مثلا بعض التجار والموظفين يستثمرون مدخراتهم فى مساحات كبيرة للزراعة ويستأجرون من يزرعها . ومع ذلك وفى حالات كثيرة فإن التغير يكون غير واضح من خلال الخط الطبقى ... ففى الجيرياما فى كينيا والتى سبق ذكرها فى الفصل الرابع كان هناك اتجاه نحو هذا النوع من التقسم إلى طبقات . ولكنه إختفى نتيجة لاستمرار قوة الرأسمالية والمعتقدات الثقافية عن أهمية المكانة الخاصة بكبار السن . وكما رأينا فى الفصل الرابع أن أحد الطرق البعيدة عن الالتزام والتى يريدها المقاول أو الملتزم هو تغيير الدين ليصبحوا مسلمين ، وبذلك تنتهي الصلة بقانونهم القديم . هذا النمط منتشر وينبغى أن نسترجعه كعامل ممكن a possible factor فى العلاقات الأولى بين الدين والرأسمالية والذى نوقش من خلال كتابات فيبر عن العلاقات فى أوربا .

هذا بالإضافة إلى وجود ترتيبات معقدة ومختلطة حيث يشترك أهل المنزل فى القيام بكثير من الأعمال لكى يعيشوا . وعلى سبيل المثال ، أنه شىء عادٍ لأصحاب المنازل الريفية أن يشارك أعضاؤها جزءا من السنة فى العمل فى أرضهم ، جزء كعمال مهاجرين ، وجزء كشريك فى المحصول أو فى أرض شخص آخر ، وجزء كعامل حرفى وليملأ الباقى من الوقت بالعمل كأجير يومى فى مزرعة (أنظر إطار ٦ – ٤ وأول صفحة بالفصل العاشر) .

إطار ٦ – ٤ حالة حسن آدم

قابلت رجلا فى شرق السودان عام ١٩٨٢ . وقد حضر إلى هذا المكان من بعد ٦٠٠ ك.م. من غرب السودان وله هناك أرض يزرعها بنبات "الدخن" ولكن لنمو أحد مشروعات الحكومة الزراعية فقد حددت زراعته ومنع من أن يمارس الدورات الزراعية ... ولذلك عمل فى بداية هذه السنة كعامل فى المشروع وقد زرع الدخن فى أرضه وتركها لزوجته وأولاده للقيام بالإشراف عليها . ورحل إلى الشرق ليعمل كعامل لعدة أشهر فى المزارع الكبيرة . وفى نهاية هذه المدة خطط للرحيل إلى العاصمة الخرطوم ليرى إذا ما كان فى إمكانه العمل كحارس لمدة أسابيع . وبعد ذلك يعود إلى المنزل فى وقت الحصاد . ولا يعنى ذلك أن حسن آدم غير نمطى أو عادٍ ، فمن المؤكد أن فى شرق السودان نجد فى شهرى أكتوبر ونوفمبر آلاف من حسن آدم بقصص مماثلة .

وبالرغم من أننا نستخدم مصطلح : "مزارع" و "الزراعة" فيجب أن ننتبه لنواحى القصور بهم . فليس كل فرد فى مجتمع زراعى بالضرورة مزارعا . فهناك من يعمل فى حرف مختلفة وإنتاج مختلط ، وعلى ذلك فالإنتاج يختلف من شهر إلى شهر وبين نفس أعضاء المنزل الواحد وما يمكننا قوله هو أنه من الصعب التعميم ، وأن كل حالة لابد وأن تحلل على انفراد . وعندما تتصل المجتمعات الريفية مع النسق الأكبر والأكثر إتساعا فيحتمل ظهور نتائج مختلفة . ولكن هناك اتجاه عام والذى ينظر إلى الأمور كالآتى :

الزراعة لإنتاج الطعـام ← مزارع ←

مزارع + إنتـاج مختـلط الأشـكال ←

البروليتاريه + إنتاج مختلط الأشكال ←

البروليتـاريه

ومن خلال هذه العملية تحدث أشكال من الفروق الاجتماعية . ويصبح بعض المزارعين أغنى من غيرهم ، وربما يتحولون إلى ملتزمين أو مقاولين ، أو مؤجرين عمال ، أو مشترين أرض ، أو ملاك لشاحنات أو عربات نقل وآلات حرث . وربما يصبح الآخرون مديونون ويفقدون أرضهم ويصبحون عمالا باليومية ، إما فى المزارع الكبيرة أو فى المدن (أنظر إطار ٦ – ٥)

إطار ٦ – ٥ الفلاحون Peasants

المشكلة هنا هى أن يصبح المزارعون شيئا آخر . ماركس يرى أنهم مجرد مجموعة من العمال متشابهين فى الفقر الشديد وذلك بسبب تحفظهم conservatism ، وهو يشبههم جميعا بـ "البطاطس فى جوال" . وتوضح الدراسات التى أجريت على المزارعين ومجتمعاتهم أن هناك إمكانية تقسيمهم إلى أغنياء ومتوسطين وفقراء . ويصف إيرك وولف هذه المجموعات كالآتى :

"فقراء المزارعين أو المعدمين الذين يعتمدون كلية على صاحب الأرض فى الجزء الأكبر من معيشتهم . ليس لهم قوة : ... فقراء المزارعين ... لا يستطيعون القيام بالتمرد إلا إذا كان فى إمكانهم الاعتماد على قوة خارجية ... أما أغنياء المزارعين فهم يستجيبون لطريق التمرد . أما من يستخدم الآخرين مثل المرابى أو أى شخص مختار من الدولة يمارس السلطة

بالتحالف مع قوى خارجية ... أما المزارعون المتوسطون فهم يمثلون الطبقة التى تؤمن مستقبلها بملكيتها للأرض التى تزرعها مع عمالتها من الأسرة ... ومن الغريب القول – أن الثقافة المحافظة أو التقليدية طور من أطوار النمو بحيث تصبح أداة لنسف دينامية النظام الاجتماعى للفلاحين . هذا التناقض يتلاشى أو ينوب عندما نفكر بأن الطبقة المتوسطة من الفلاحين هم العرضة للتغير الأقتصادى بالعملية التجارية . حيث توازنهم يهدد باستمرار بزيادة نمو السكان ، وبزيادة التعديات من الملاك المنافسين ، ويفقد حقه فى المرعى ، والغابة والمياه وانخفاض الأسعار ووجود ظروف غير مواتية فى الأسواق ، وبدفع الفوائد ... أما مزارعوا الطبقة الوسطى فهم دائما عرضة للوقوع تحت تأثير من البروليتاريا النامية . (فهو) ... يقيم فى الأرض ويرسل أبناءه للعمل فى المدينة ... وهذا يجعل المزارع المتوسط مرسلا أو وسيطا a transmitter إلى المدينة غير المستقرة هى وافكارها السياسية .

(Wolf, E., 1971, pp. 290 - 292.)

والأشكال المختلفة التكوين ربما تمثل مراحل متوسطة فى تنمية العلاقات الاجتماعية الجديدة . وإلى أى مدى يمكن أن نأخذ العملية مؤكدة ، بالطبع لا يمكن لأحد أن يتنبأ . فبعد مرور مائتى عام ما زال هناك أناس فى أوربا يعتبرون فلاحين ...

التغيرات فى نمط المنزل :

إن ما يؤثر بشدة فى الرابطة بين المجتمع الريفى والنسق الأجتماعى والاقتصادى الكبير، إنما هو تأثره بالعلاقة الاجتماعية داخل المنزل . فوصف "تشيانوف" لأهل المنزل الريفيين التابعين للمزارع فى روسيا يؤكد أن قرارات الإنتاج لم تكن لها علاقة بالسوق . فكان الهدف العمل لتوفير ما يحتاجه أهل البيت ، لا للحصول على أى فائض للبيع والربح . وكانت هذه هى الحالة الغالبة لدى جميع الفلاحين وبيوتهم فى أنحاء العالم ، لأنه لم يكن هناك تعامل مع نسق السوق الكبير ، وقد كان هناك القليل للشراء وقلة فى الاحتياج للبيع . ومعظم ما كان يحتاجه المنزل كان من إنتاج المنزل أو من داخل المجتمع المحلى سواء أكان من الحرفيين أو المتخصصين . وفى كثير من المجتمعات التى تعيش على إنتاج ما تاكله أو فى المجتمعات الزراعية ، إذا ما وجد فائض فى الإنتاج عن حاجة المنزل فربما يعطى للآخرين أو يدمر even ritually destroyed . وعندما ينشغل المنزل فى أى عمل بالأجر يصبح الإنتاج من

أجل البيع ، ويصبح العمل فى حد ذاته أحد فقرات البيع . إنها قيم السوق ، والسعر ، بمعنى آخر "الأجور" . وعندما يحدث هذا ، يظهر الضغط بين أخلاقيات الأسرة والمجتمع المحلى ، واحتمال وجود دخل للفرد وثرائه . على سبيل المثال ، فالطفل الذى يتوقع أن يعمل فى مزارع والده أو تربية الماشية ، ربما يرفض العمل الآن لأنه فى إمكانه أن يعمل مع شخص آخر ويكسب نقود . أو تختفى فكرة التعاون فى العمل . والنمط الآخر للتنمية فى هذا الاتجاه والذى سبق ذكره – حيث تعمل المرأة أو الطفل فى المنزل طبقا للقواعد القديمة للإنتاج المنزلى ، ولكن الآن رب العائلة يبيع الإنتاج ويحتفظ بالنقود لصالحه ونادرا ما يكون لصالحها الخاص . وأحيانا يستخدم هذا الدخل الشخصى للرفاهية الاستهلاكية . وأحيانا يستخدم من أجل شراء آلات أو أرض أو فى الاشتراك فى عمل بطريقة ما . وهذا النوع من التغير له تأثير معادٍ على المرأة . كل هذه الأمثلة ، وكل هذا يفهم على أنه ضغوط بين المجتمعات الطائفية والموزعين وقيمهم قبل أن يكونوا مجتمعات رأسمالية والفرص المتاحة للربح الشخصى عن طريق الإنتاج للسوق والتى تصاحب المزارع . إن المجتمعات المعيشية – تنتج لتعيش فى انتقالها إلى مجتمعات زراعية ، والمجتمعات الزراعية فى انتقالها إلى مجتمعات رأسمالية أو مجتمعات اشتراكية ، وهم فى الغالب ما يكونون فى حالة تمزق لاضطراب القيم الثقافية وتغيرها .

المجاعة والثورة الخضراء والزراعة كمجال للأعمال :

إن ريح التغير لتجتاح دول العالم الثالث متخذة أشكالا عديدة . وغالبا تشمل العديد ممن يعانون وفى بعض الأحيان يكون هناك مجال للتفاؤل وذلك لزيادة الإنتاج . ولكن لماذا تحدث المجاعات الشديدة بينما فى أماكن أخرى يوجد فائض إما فى داخل الوطن الواحد أو حيث توجد جبال الحبوب فى أوربا أو شمال أمريكا ؟

استمر مصطلح الثورة الخضراء فى الستينات ليصف الانتاج الكبير للحبوب والتى صاحبها اختيار لسلالات الأرز والقمح والمحاصيل الأخرى . وهذه السلالات الجديدة تعطى إنتاجا كبيرا بمقارنتها بالسلالات القديمة (أنظر إطار ٦ – ٦) . وقد أدت الثورة الخضراء إلى زيادة المحاصيل فى الهند وجنوب شرق آسيا بشكل ملحوظ ، وإلى العكس فى افريقيا وامريكا الجنوبية .

إطار ٦ – ٦ الثورة الخضراء

لقد قام فريق من العلماء تحت إشراف بورلنج borlang في الستينات فى المكسيك بإنتاج محاصيل عالية الجودة يرمز لها بـ "High Yielding Varieties "HYVs

١ – تستجيب بسرعة للأنواع العالية من السماد .
٢ – لها ساق قصيرة لا ينطوى إذا ما كانت سنبلة القمح ثقيلة .
٣ – كما أنها تقاوم الأمراض المعروفة التى تهاجم القمح .

وهذه الخطوات أتبعت أيضا بنجاح مع محصول الأرز . وهى لا تتطلب سوى ماء وفير ، وسماد وطريقة زراعة جيدة ، وكل ذلك يعرف "بالثورة الخضراء" ، أما المصطلح الذى تم اختياره حاليا فهو "الثورة الحمراء" .

وأحد نتائج الثورة الخضراء أن أصبحت الهند مصدرة للحبوب . ونظريا عندها ما يكفى لإطعام الأعداد الهائلة من سكانها . وقد ذكرت "نظريا" لأن هناك كثير من الناس يموتون جوعاً . لماذا ؟ الاجابة أن التغير التكنولوجى وحده ليس كافيا وليس هو الحل . ولكننا بحاجة إلى تغير اجتماعى . ففى "الثورة الخضراء" لا يستفيد كل شخص بالتساوى . وقد اتضح من إطار ٦ – ٦ أن التغير الجديد يمكن أن ينجح إذا ما كان العمل جيدا أى إذا ما توافر السماد الجيد والماء . وفى حالة عدم وجودهما يصبح الإنتاج منخفضا عن النوعيات القديمة والتى تتحمل الجفاف . وقد رأينا مجتمع المزارعين بفروقهم الاجتماعية . فتشير الحقائق إلى أن أثرياء المزارعين هم القادرون على القيام بالعملية كلها . وبقيامهم بهذا العمل زادت مخرجاتهم . كما وسعوا من مزارعهم حيث استخدام مزيد من الآلات ، مثل المضخات ، وآلات الحرث . وهذا من شأنه أن يوفر عددا من العمال الفقراء والأجراء الذين ليس لهم أرض وهم الآن ربما يكونون فى حالة سيئة أكثر من ذى قبل . (أنظر إطار ٦ – ٧) .

إطار ٦ – ٧ تزايد الفروق وطبقة البلوريتاريا فى الهند

فى الهند ، إن ... "التكنولوجيا الحديثة" أسرعت بوجود الفوارق لدرجة تفوق الشك . وقد كان لها الفضل فى التضامن بين أثرياء المزارعين كقوة ، وكطبقة سائدة : وقد أصبح المزارعون الأثرياء أقوى اقتصاديا وقد ظهرت عليها سمات طبقة أصحاب المزارع الرأسماليين .

الدرجات المختلفة للبروليتاريا : –

... فى شمال غرب الهند ترى إنعدام الملكية تقريبا بين المزارعين الفقراء ... ما حدث هو أن كثيرا من المزارعين الفقراء وجدوا أن ما يملكونه من أرض صغيرة أصبحت غير كافية . ولذلك بدأوا فى تأجيرها للمزارعين الاغنياء ... أما "التكنولوجيا الحديثة" فقد قدمت ظروفا أصبح المزارعون الفقراء من خلالها "مضطرين" إلى ترك أراضيهم وبدلا من زراعتها بأنفسهم أصبحوا أجراء أو عمال باليومية ... ولكنه يعود أحيانا إلى امتلاك قطعة أرض حتى ولو كانت قطعة صغيرة . وكان لهذا تأثير فى حركة الدمج بين المزارعين الفقراء ... والاجراء المعدمين من العمال الزارعيين ، وأدى ذلك إلى وجود تحالف سياسى بين هاتين الطبقتين بسهولة وهناك شكل ثان للتحول الجزئى يوجد فى شمال غرب الهند وأجزاء أخرى ... وهو مرتبط بالتقاسم أو المشاركة فى المحصول . فهو انتقال من الأشكال التقليدية للمشاركة فى المحصول ... إلى التأجير مع دفع المالك النفقة أو التكلفة ففى الأولى ... المستأجر يمد أو يوفر كل المدخلات وفى مقابل ذلك يزرع الأرض ويعطى نصف أى ٥٠٪ من المحصول الناتج للمالك ... أما الأخير ... فالمالك يمده بالمشتروات والمدخلات وفى مقابل ذلك يأخذ نسبة أعلى كنصيب . فالمزارع بالنصف قريب من أن يصبح مزارعا بالأجر .

(Byres, T. and Crow, B., with Mac Wan Ho, The Green Revolution in India, the Open University Press, 1983, p. 41.)

بجانب هذه النتائج غير المتوقعة ، فالثورة الخضراء يمكن أن ينتج عنها الفقر فى وسط الثراء ، فبينما الإنتاج الكلى يرتفع نجد أن انتاج الحبوب الفقيرة مثل "الشعير أو الشوفان" الذى تأكله الطبقات الفقيرة ربما تضمحل . وهذا ما حدث فى الهند وبنجلاديش . وهكذا نجد أن الفقراء غير قادرين على شراء ما ينتج عن طريق الثورة الخضراء ، لأن بعضها فى الواقع يصدر بينما الحبوب "الجافة الفقيرة" تصبح غالية الثمن ، وفى نفس الوقت قلت مصادر استخدام هؤلاء المزارعين ، مما يجعل دخلهم يفشل تقريبا : لدرجة أنهم يصبحون فى انتظار الكارثة . ولا يمكنهم شراء الغذاء من السوق .

المجـــاعة :

وبالرغم من أن الهند تستطيع السيطرة على مصادر الغذاء من خلال السوق ولكننا نستطيع أن نشرح أسباب المجاعات وكيف ولماذا تحدث ؟ لقد رأينا صورة مروعة للمجاعات فى

اثيوبيا والسودان . وفى خلال ذروة المجاعة فى السودان عام ١٩٨٥ هجم الجياع على مخازن الحبوب .

ولقد اعتدنا حدوث المجاعات كنتيجة لظروف طبيعية مثل الجفاف . ولكن مع كثير من الملابسات ، ومن منظور اجتماعى ، فالقصة ليست بهذه البساطة . فربما يتسبب الجفاف فى وجود المجاعات ولكن هناك وقفات كثيرة على الطريق بين الجفاف والجوع . فأحدهما وعلى وجه الخصوص الفقر وفيه تمنع الناس من شراء الطعام المتاح فى الأسواق . (أنظر إطار ٦ – ٨)

إطار ٦ – ٨ المجاعة فى إقليم وولو بالحبشه

كانت هناك مجاعة مروعة فى إقليم وولو بالحبشه وذلك فى عام ١٩٧٣ ، ولقد حدث ذلك رغم عدم وجود انخفاض فى المنتجات الاقتصادية وكان استهلاك الفرد للطعام أثناء ذروة المجاعة أى عام ١٩٧٣ شيئا طبيعيا فى أثيوبيا ككل . بينما كان الاستهلاك الفعلى للطعام فى "وولو" قد انخفض فى هذا العام ، ويرجع عدم قدرة أهل "وولو" على السيطرة على الطعام وشراؤه من الخارج إلى عدم القدرة على الشراء والفقر . والجدير بالملاحظة أن أثناء المجاعة فى اقليم "وولو" كانت أسعار الطعام قد ارتفعت قليلا ، ورغم ذلك كان الناس يموتون جوعا حتى عندما وصل سعر الطعام إلى نفس مستوى الأسعار تقريبا قبل الجفاف . وهذه الظاهرة يمكن فهمها فى ضوء الفشل فى القطاعات المختلفة فى إقليم وولو وعلى هذا الأساس يكننا القول إن الجفاف لم يصب كل أقاليم أثيوبيا ولم يكن هناك عجز كامل فى الغذاء ولكن هناك فئات اجتماعية معينة هى التى تأثرت داخل إقليم وولو . من هم الذين تأثروا ؟

من خلال المعلومات المتاحة والفئات التى أصابتها المجاعة فى عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤ فى إقليم وولو وقد حددت داخل الطوائف والوظائف الآتية :

١ – الرعاة .
٢ – خدم المزارع المطرودين والذين يعتمدون على أصحاب المزارع والعمالة الريفية .
٣ – الزراع المستأجرون . ٤ – مالكو الأراضى الزراعية الصغيرة .
٥ – العمال بالأجر اليومى فى المدن . ٦ – السيدات العاملات فى الخدمة .
٧ – الغزالون والحرفيون . ٨ – الشحانون المحترفون .

(Both of these extracts are from Sen, A., K., Poverty and Famines, Clarendon Press, 1984, pp. 111 - 112 and pp. 99 - 100.)

فى السودان فى الفترة من عام ١٩٨٣ إلى عام ١٩٨٥ ، أحد العوامل التى أدت إلى المجاعة هو توسع المزارع التجارية . ونزع الأرض من أصحاب الملكيات الصغيرة التى تزرع من أجل المعيشة والرعى ، (تذكر هجرة العمال فى الفصل الأول وحسن آدم فى إطار ٦ – ٤) . وهم غير قادرين على مساعدة أنفسهم بدون دخل ، هؤلاء الناس كان سببا من أسباب مجاعتهم هو التوسع فى المزارع التجارية كجزء من مشاريع التنمية مشجعا لهم البنك الدولى ، أما أصحاب المزارع الأغنياء فلم يعانوا من المجاعة .

الزراعة كعمل تجارى .

الزراعة كعمل تجارى يديره اتحادات انتقالية (أنظر إطار ٦– ٩) . وأهم شىء لهذه الاتحادات هو الربح ، وهم يكونون جزءا كبيرا من النسق العالمى فى الزراعة كما يفعلون فى الصناعة (أنظر الفصل الرابع) .

إطار ٦ – ٩ الزراعة كعمل تجارى .

انتشرت قطاعات الزراعة التجارية عبر كل القطاعات فهم يمتلكون المزارع ، والإدارة ، والشركات ، والأستشاريين والسماد ، والزراعة الكيميائية ، وتركيبة العلف الخاصة بالماشية ، ومديرى المبيعات ، وشركات الشحن ، والمرابين ، ومندوبى البنوك ، وخبراء المزادات والتصدير وشركات التصدير والاستيراد والبنوك التجارية وشركات توزيع المعدات الزراعية وإدارات الابحاث والمصانع التى تعد الآلات للعمليات الزراعية وشركات حفظ الأغذية والعصائر ، حتى الأسواق الكبيرة – السوبر ماركت – لبيع المنتج النهائى . كثير من هذه الشركات أصبحت أسمائها مألوفة مثل " نسلة ، وتات والى ، هينزوبروك بوند ، والشركة الامريكية البريطانية للتبغ ..." وهناك أسماء لا ترتبط بالزراعة عامة مثل آى سى آى I.C.I. ، وهوكاست ، وشل.. وكل الشركات الكيمائية واتحادات نقل البترول ، كل هؤلاء يدخلون فى أنشطة الزراعة التجارية منتجين السماد لتحسين نوعية البذور والمبيدات وهى من أفضل الأنشطة المحببة للزراعيين .

(Dinham, B. and Hines, C., Agribusiness in africa, Earth Resources Ltd, 1983, p. 9.)

فى بحثهم من أجل الربح ، تقيم مثل هذه الشركات مزارع كبيرة والتى ربما تحرم

الفلاحين من أراضيهم لكى يزرعوها محاصيل ذات قيمة مادية عالية من أجل أسواق شمال وغرب أمريكا – ماتراه فى الأسواق من أناناس وثمار المانجو والبسلة الخضراء والموز كل ذلك يختلف عن انتاج صغار المزارعين . أو إذا ما أخذت مثالا آخر فهناك أحيانا ابحاث تجرى فى المجتمعات الزراعية المعيشية أو المنزلية فى دول العالم الثالث لإيجاد طرق لتحسين الزراعة المعيشية . وهى تجرى لايجاد طرق لتحسين الإنتاج وخاصة المحاصيل ذات العائد المادى فى المنطقة الأستوائية . فالثورة الخضراء مثال على مثل هذا البحث الذى أوجد الجديد من الأبحاث المناسبة على نطاق واسع ، فالمزارع الفنية ليست للفقراء وغالبا ما يوجد رابطة خطيرة بين نمط المساعدة عن طريق الحكومات الغربية والمصالح المتعددة الجنسية (أنظر إطار ٦ – ١٠)

إطار ٦ – ١٠ البنك الدولى * – نيجريا والزراعة التجارية

خطة نيجيريا الحديثة لزيادة إنتاج الغذاء ... قدرها البنك الدولى وخبراء نيجيريا ... وتوقع لها أن تتكلف حوالى ٢٤ر٨ بليون دولار أمريكى فى الفترة من عام ١٩٨١ – ١٩٨٥ وقد خطط لها على أن تعطى حوالى ستة وسبعين الف هكتار صالح للزراعة . وينفق عليها من المساعدات المالية ، وتقوم الحكومة بالإمداد المالى ويشمل مدخلات فرعية والعمال الزراعيين كبنية تحتية للمشروع ...

والمبلغ الكبير المستخدم فى هذا المشروع يخضع لأعمال المجتمع الأمريكى ، وفى ظل وجود شعب تعداده حوالى مائة مليون شخص ، نجد أن هناك نيجيرى بين كل أربعة أفارقة

* تأسس صندوق النقد الدولى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وذلك لمواجهة الظروف الأقتصادية والسياسية التى نتجت عن هذه الحرب ، ومقرها واسنطن . وكانت هذه بداية للسيرطة الأمريكية والمعسكر الرأسمالى ، حيث ساهمت أمريكا بنسبة ٣١٪ من الأسهم المالية مع الأشارة بأن القوة التصويتية لأى دولة مرتبطة بعدد أسهمها ، مما أعطى أمريكا السيطرة على قرارات الصندوق . وزادت قوة وتأثير صندوق النقد فى القعدين الأخيرين أى منذ عام ١٩٧١ ومنذ ذلك التاريخ فى مديونيات الدول النامية فى زيادة ، مما أدى إلى تدخل الصندوق فى سياسات تلك الدول . ولم يقتصر التدخل على أهداف الإصلاح الاقتصادى ، كما يزعم الصندوق وإنما أمتد إلى تدخلات سياسية وأصبح سلاح ضغط سياسى على هذه الدول ، وأصبح تدخل الصندوق لخدمة أهداف سياسية خاصة بالصندوق . وهناك بعض الأمثلة لهذه التدخلات فقد قدم الصندوق قرضا لجنوب أفريقيا سنة ١٩٧٦ قيمته ٤٦٤ مليون دولار بعد أن اكتسحت قواتها أراضى دولة (سويتو) المجاورة وكان هذا القرض يعادل تقريبا حجم النفقات العسكرية فى ميزانية أفريقيا لنفس العام .. [المترجمة] .

فالدخل القومى الآن G. N. P. يزيد عن خمسين بليون دولار . فسياسة الحكومة هى تشجيع المشروعات الخاصة والاستثمار الأجنبى ، ولذا فهامش الربح مجزٍ . كل هذا يصنع من نيجيريا سوقا من الدرجة الأولى للزراعة التجارية عبر الدول

Dinham, B. and Hines, C., 1983, p. 151 .

ملخص :

التغير الريفى مشكلة . فالتحليل الماركسى يركز على علاقات الإنتاج وطريقة التغير . فبينما نجد أن النظرية الماركسية تقسم الفئات الطبقية إلى طبقة البلوريتاريا ، والبرجوازية ، نرى أن هناك أشكالا مختلفة متعددة ومختلطة للتنظيم الاجتماعى والتى تظهر على المدى الطويل للإنتاج المعيشى ، وتمر من خلال المزارع البسيطة إلى البروليتاريزم . وخلال هذا الانتقال أو التحول ، يمكن أن تلعب العوامل الثقافية دوراً هاما فى تقرير النتائج الخاصة بالتفاعلات بين التنظيمات الاجتماعية فيما قبل الرأسمالية وما بعدها . فالثورة الخضراء تدخل البيئة الاجتماعية وتستخدم التكنولوجيا لمنفعة البعض ولضرر الآخرين . والمجاعة هى نتيجة للفقر كما أنها نتيجة للجفاف . بينما الجفاف طبيعى فالمجاعة هى عملية اجتماعية . والزراعة التجارية عبر الدول تحدد دائما أولوية الأبحاث الزراعية وأهداف الإنتاج ، ولا تضع فى حساباتها أو ضمن أهدافها مصالح أو منفعة أو خدمة فقراء الريف ، ولكنها تعمل مع الدول وأثرياء العالم الثالث ، الذين يمثلون مظهرا من مظاهر النسق العالمى . وفى الفصل التالى سوف نتعرض للدولة بتفاصيل أكثر ، ونرى كيف ولماذا تخدم الدولة مصالح واهتمامات الاثرياء ونادرا ما تعير اهتمامها بالفقراء .

الفصل السابع

الدولة – الحكومة والتعليم

فى الفصلين الأخيرين درست الفروق بين المجتمعات القائمة على التسويق واللا تسويق . وقد عرضنا لبعض المشكلات التى ظهرت عندما حاول رجال الاجتماع فهم العلاقة بينها .

وإذا ما تحدثنا تاريخيا عن الانتقال من التنظيم أو النظام القائم على اللا تسويق إلى التسويق نجد أنه كان يدار من قبل الدولة . ففى القرن التاسع عشر ساد فى أوربا مدخل الليبرالية أو الاقتصاد الحر دعها تعمل Laissez-Faire وكان متقبلا وقد قامت الدولة بدور الحكم referee بينما الملتزم يقوم بأداء عمله مكدسا الثراء الواسع من خلال متابعة مصلحته الشخصية . وبالرغم من ذلك فقد لعبت الدولة دورا هاما فى تنمية المجتمعات الرأسمالية والصناعية . وقد أخذ ذلك اشكالا عدة ، مبتدئا من ايجاد قانون يحافظ على الملكية الخاصة ، وفى نفس الوقت يمنع ظهور أى شىء يمنع قيام الاتحادات التجارية ، والتى جعلت مؤخرا التعليم الزاميا ، ليس فقط لأن العمال يرغبون فى التعليم ولكن لأن الموظفين يحتاجون إلى العمال القادرين على القراءة والكتابة . وللدولة تأثير كبير أيضا على نوعية ومحتويات التعليم ، وهكذا تؤثر فى أفكار الناس ومعتقداتهم . وفى الفصل الثانى قد أوضحت أن "بارنجتون مور" يرى أن هناك ثلاث طرق للتنمية ... طريق الديموقراطية البرجوازية ، وطريق الفاشية ، والطريق الثالث من خلال نمو المزارعين . وفى كل هذه الحالات لعبت الدولة دورا . ولكن فى الحالتين الاخيرتين وصل الدور إلى القمة . واليابان هى أوضح مثال على هذا المجتمع والذى نشأت تنميته بالسيطرة الكاملة لدولة حكيمة مركزية صاحبها حب للوطنية وإلى جانب الإيدولوجية ، والعنصرية . الاتحاد السوفيتى والصين مثلان لمجتمعات الفلاحين الصاعدة التى تركز فيها الدولة على جميع الاتجاهات للإنتاج والاستهلاك والتوزيع إلى جانب الثقافة والتعليم .

وفى معظم الدول الافريقية وجنوب شرق آسيا ، والبحر الكريبى والباسفيك والتى تعرضت للحكم الاستعمارى نشأت أهمية الدولة عن طريق قوة الاستعمار . وفى افريقيا ، الضرائب والعمالة الاجبارية والمحاصيل ذات العائد النقدى كلها سياسات أثرت على الريفيين نتيجة للحكومات الاستعمارية (إنظر إطار ٥ – ٢) والشىء الذى يدهشنا ، أن فترة ما بعد الاحتلال استمرت الدولة فى كونها القوة الأساسية للتنمية . ويمكنك استرجاع ذلك فى الفصل

الثانى ، ولقد ذكرت أن كثيرا من قيادات الدول المستقلة فى العالم الثالث تأثروا بخبرة الاتحاد السوفيتى فى الفترة من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٥٦ والتى أصبحت قوة عظمى عالميا ، وانتقلت إلى دولة صناعية وأطلقت أول صاروخ أو مركبة فضائية وحسنت الصحة والتعليم لكثير من المواطنين (والكثير منهم يعتبر من مجتمعات دول العالم الثالث فى وسط آسيا) كل ذلك تم تحت توجيه دولة مسيطرة . إن هذين النموذجين الاستعمارى والسوفيتى مع الإختلاف ، ارتكز وجودهما على الدولة والتنمية – فالدولة هى القوة الأساسية للتنمية فى دول العالم الثالث الآن . ومع ذلك فيجب ألا نتخيل أن هذا الدور الحساس مقصور على دول خارج غرب أوربا وشمال أمريكا . فاليوم نرى أن الحكومة فى الولايات المتحدة وبريطانيا ، تعلن رغبتها فى التقليل من تدخل الحكومة فى الاقتصاد والمجتمع ، وهى فى الحقيقة سياسات تسعى إلى تعميق وامتداد النظم الشمولية .

إطار ٧ – ١ ماهى الدولة ؟

الدول الأوربية الحديثة بدأ تطورها ونموها يدا بيد مع تنمية الرأسمالية . فالفلاسفة فى القرن السابع عشر والثامن عشر أمثال توماس هوبز (١٥٨٨ – ١٦٧٩) ، وجون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤) رأوا أن هذه التنمية تؤثر على حقوق الفرد . وكان تفكير الأخير – جون لوك – أساسا لسياسة دعها تعمل التى أقرتها الدولة . أما عند الكتابة عن العالم الثالث ، فعلماء الاجتماع يستخدمون مصطلح (الدولة) بعدة طرق . فى بعض الأحيان يستخدمونه بمعنى (الحكومة) دائما يستخدمونه بطريقتين منشأهم على الاجتماع الماركسى . الاول يسمى رأى أو وجهة نظر ميليباند .

(Milliband, R., The state in Capitalist society, Weidenfield and Nicnolson, 1969)

والثانى يسمى وجهة نظر البولانتيز

(Poulantzas, N., Political power and Social Classes, New Left Books, 1973.)

هاتان النظريتان معقدتان وتعرضتا لكثير من النقاش فى هذا الكتاب . ويمكننى إعطاء ملخص صغير عن آرائهم . بالنسبة لميليباند فهو يرى أن الدول الرأسمالية تتكون من كل من

الترتيبات الإدارية والسياسية والقانونية والتى تحمى وتحافظ على الملكية الخاصة وقوة البرجوازية . ويميل ثقل الميزان إلى إحدى الطبقات وذلك يحدث بسبب الأشخاص القائمين بالخدمات المدنية ، الصناعة ، والبنوك فكلهم يتعلمون نفس النوع من التعليم بجانب أنهم ينحدرون من أصول عائلية واحدة . فهم قادرون على إنجاز الاعمال بطريقتهم الخاصة بسبب "شبكة الأعمال القديمة" . ويتبنى بولانتيز رأيا مناقضا ، فهو يرى أن الحكومة تعمل لصالح الطبقة الحاكمة . ومع ذلك فهو يفسر كيف يحدث ذلك على مستوى ايدولوجى . فالدولة تضع أسس القوانين التى تعمل بها من خلال تأثيرها على القيم المختلفة للحياه . فهى تؤثر فى شكل التعليم ومحتوياته على سبيل المثال فهى مؤثرة فى مشاعر الناس من سن مبكرة . فهى تساند وجهة نظرقانونية تمثل العدالة ، ومن خلال القوانين التى تصدرها تنظم حياة الأسرة ، ومرة أخرى فهى تعطينا ما تراه أساسى وما تقول عنه أنه " صواب " أو حق وطبيعى . وهى بذلك تحقق الوحدة الكاملة للمجتمع ، ولكنه فى الغالب لصالح الطبقة الرأسمالية والنسق الرأسمالى . وهى بذلك تصبح حلبة للصراع بين الفئات المختلفة من الطبقة الحاكمة .

وعلى النقيض لهذين المفكرين كان علماء الاجتماع الأوائل غير الماركسيين أمثال دوركاييم وفيبر الذين أعطوا اهتماما قليلا للدولة حيث انها تشكل مشكلة اجتماعية لديهم كعلماء اجتماع متبنين الرأى القائل ان الدولة يجب أن تقوم بدور الحكم بين قطاعات مجتمع دعنا نعمل . وفى نظرية التحديث ، الدولة فى مكانة مهمة ولكنها هى كشريان محايد ومنظم لتنمية المجتمع . أما الرأى المتفق عليه فيما وراء نظرية التحديث فهو لا يعتبر الدولة شيئا أكثر من محايد .

وفى الفصل الأخير ، رأينا كيف تكون سياسة الثورة الخظراء والتنمية الريفية قد قُدمت تحت ستار تبشير الدولة بأنها تخدم مصالح الكل – فقير وغنى – ولكنها فى الواقع ساعدت على تحقيق مصالح الأغنياء وزادت بعض الفقراء فقرا . ولكن كيف كانت سياسة الدولة التنموية ذات نتائج غير متوقعة فى حين كان هدفها واهتمامها هو التنمية ؟ فى هذا الفصل أود أن أذكر الكثير عن الحكومة والدولة وأدوارهما فى التنمية وسوف أقدم التعليم كمثال للعلاقة بين الدولة وسياسة التنمية .

جميع الحكومات تقدم سياستها على أنها رغبة واهتمام الجماهير أو المواطنين . ولكننا فى الواقع نحس أن سياسة الدولة لا تنفذ فى هذا الاتجاه سواء فى الدول المتقدمة أو النامية

وعلى سبيل المثال السياسات التى توضع لتحقيق النمو الصناعى ربما تفيد أصحاب المصانع على حساب الأجور المنخفضة وظروف العمل الخطيرة الخاصة بالعمال وهناك أثر آخر قد يؤدى إلى انخفاض أسعار المنتجات الزراعية لكى يحصل العمال فى المدن على غذاء رخيص ولكن كل ذلك على حساب أصحاب الدخول المنخفضة من منتجى الريف .

ومشاكل تنظيم المجتمع ككل بواسطة الحكومة هى موضع اهتمام علم اجتماع الدولة .

النظريات الاجتماعية للدولة :-

هناك نظرية معروفة يتقبلها الجميع هى "نظرية الحرية للدولة" وهذا الرأى يقول إن الدولة تعمل للصالح العام لجميع الطبقات والجماعات فى المجتمع . إنها نوع من الحكم referee المحايد ، الذى يقدم خدمات واسعة مثل رصف الطرق ، والسكك الحديدية ، والتعليم ، وإقامة العدل لتعين الناس على أن يستمروا فى حياتهم . وهذا يشابه الحفاظ على النظام فى استاد الكرة والتى تسمح بإيجاد الأرض والقوانين والحكم لكى تستمر اللعبة . إن هذا الرأى هو الذى صاحب مبدأ "دعنا نعمل" الرأسمالى . وهناك رأى آخر عن الدولة مستمد من أفكار ماركس وانجلز . فهم يقترحون رأيين يمكن وصفهما بأنهما نموذج " اللجنة التنفيذية " ونموذج بونابرت . (أنظر إطار ٧ – ٢) .

إطار ٧ – ٢ نموذجان ماركسيان

نموذج اللجنة التنفيذية

يتبنى هذا النموذج فكرة أن الدولة والحكومة لا يعملان لصالح الطبقات فى المجتمع . ولكن فقط من أجل صالح الطبقة الحاكمة – ففى كلام ماركس الدولة هى "اللجنة المنفذة أو التنفيذية لكل البرجوازيين" .

فى هذا النموذج ، القانون ، والتعليم وسياسة الحكومة جميعها تشكل وتفسر أو تبرر لصالح الطبقة الحاكمة .

نموذج بونابرت

وكتب ماركس أيضا عن لويس بونابرت Louis Bonaparte ويعرف باسم نابليون الثالث قائد الانقلاب الحربى فى فرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر . كتب ماركس عن هذا

الانقلاب وكتب عن الظروف الخاصة بذلك الوقت والمكان مثل مستويات الصراع بين طبقات المجتمع الفرنسي والتي كانت كقوة هائلة ، وقفز العسكريون في هذا الجو وتمكنوا من أن يحكموا لصالحهم مستغلين الصراعات الموجودة بين الجماعات في المجتمع .

وهناك رأي آخر عن الدولة مشابه لنموذج بونابرت هو رأي "ميلوفان" Milovan Djilas في كتابه الطبقة الجديد (Thames and Huson 1957) يبين هذا الاجتماعي اليوغسلافي أن الاتحاد السوفيتي بالرغم من قيام ثورة فيه باسم البلوريتريا والاشتراكية فإن الاضطهاد والاستغلال من جانب طبقة البرجوازية لم يحل محله حكم البروليتاريا ولكن حل محله سيطرة وتحكم موظفي الدولة . وهذه المجموعة شكلت "طبقة جديدة" لها سيطرتها والقائمة على أسس غير قانونية لوسائل الإنتاج ، ولكن بالسيطرة على الدولة وطرقها التنفيذية مستغلة آليات الحكم لصالحها . وهناك فريق من علماء الاجتماع يدرسون الدولة في العالم الثالث وقد تبنوا الاتجاه البونابرتي كقاعدة للتحليل . وعالم الاجتماع التنزاني عيسى شيفي Issa Shivji وصف الموقف كما يلي : في أحد الدول الأفريقية المتخلفة مع وجود جزء ضعيف من الطبقة البرجوازية نجد أن الجزء الحاكم من الطبقة البرجوازية يسيطر على آليات الدولة بحجة الاستقلال ويسيطر على قوة هائلة ومن ثم فهي فئة قوية وهذا ما وجد في تنزانيا ... والنموذج التنزاني يقترب كثيراً من نموذج بونابرت حيث إن الطبقات الكادحة ازدادت ضعفا تاركة الفرصة للطبقة الحاكمة لتتحد على القاعدة ورافعة الدولة فوق الصراع الطبقي ، ولكن بالطبع هذه الطبقات الكادحة لم تضعف نفسها بنفسها في الصراع من أجل الاستقلال ولكن هناك موقف مشابه نتج عنه هذه الحقيقة أن الطبقة البرجوازية ضعيفة ولم تَنْمُ بعمق أقتصاديا وقد ترك ذلك للطبقة الحاكمة اليد العليا . وبكلمات أخرى أصبح التطلع إلى السيطرة على الدولة هو العامل الحاسم ومن أجل ذلك ولأسباب أخرى ... فلقد اقترح أن تحدد أو أن تشبه "الطبقة الحاكمة" "بالطبقة البرجوازية البيروقراطية" . وقبل إعلان أروشا [بيان سنة ١٩٦٧ من قبل الرئيس نيريرى] ينتقد هذا الاتجاه وهذا يؤلف أساساً مستوى القمة لجهاز الدولة – وزراء وكبار رجال الدولة المدنيين وكبار رجال الدولة العسكريين ورجال الشرطة وما شابه ذلك وربما يدخل في ذلك المستويات العالية من البيروقراطية من الحزب والطبقات المتعاونة .

(shivji, quoted in Saul, J., The State in Post Colonial Society in Golbourne, H. (ed.), Politics and state in the Third World, Macmillan, 1979, p. 78.)

وهناك أسئلة هامة عن سياسة التنمية والتى أثارها هذا الرأى وهو ما إذا كان بالإمكان تحقيق التنمية سواء أكان ذلك من أعلى وذلك من خلال العمل من خلال الدولة * "ويمكنك أن تفحص آراء نيريرى عن هذا الموضوع فى مقتطف كتب فى الفصل التاسع" . وسواء ما اتخذت القوة السياسية اسم "التنمية" أو "الاشتراكية" كضرورة لتشمل هؤلاء الذين تولوا السلطة ويحكمون لمصالحهم الخاصة . وفوق كل ذلك فعلم اجتماع الدولة يجعلنا نتساءل أين بالضبط تأخذ "السياسات" مكانها فى المجتمع .

التنمية السياسية :

أصحاب نظرية التحديث modernisation theorists (انظر مقالة شوداك chodak pp. 183 - 184) قد أوضحوا أن التنمية السياسية تعنى إقامة دول لها انساق حكومية قريبة الشبه من الدول المتقدمة . وعلى النقيض الماركسيين Marxist theorists حيث يؤكدون أن وجود الدولة يعنى الحكومة التى تحقق اهتمامات أو مصالح الطبقة الحاكمة ، وأن العمل السياسى يجرى من داخل مؤسسات الدولة وهى فى الغالب ما تكون ضد العمال والفلاحين ، والمقتطف التالى قد يساعد فى فهم هذه المشكلة .

ونظام الدولة – الأمة Etatism ، هو تحديد سياسة الدولة ، وتنمى وتثرى الايدولوجية الخاصة بالدولة المسيطرة Soveereign Nation - State . وبينما تشكل الدويلات قوة سياسية رئيسية

---

* إن من أهم المشكلات التى تواجه الدول النامية هى نوعية البناءات السياسية والاجتماعية والإقتصادية والتى يحدث فى إطارها التنمية – اقتصادية ، اجتماعية ،سياسية – وما يرتبط بذلك من قوى صد متمثلة فى القيادات التقليدية القديمة . كما ظهرت مشكلات مرتبطة بالتصنيع ومحاولة الوصول إلى المستوى الذى وصلت إليه المجتمعات الصناعية رغم اختلاف الظروف – الاقتصادية والثقافية والعالمية – المرتبطة بتصنيع الغرب فهى ظروف على أقل تقدير أفضل من ظروف المجتمعات النامية خاصة الظروف الخارجية المرتبطة بالنظام العالمى والتحديات الخارجية ، ونظام السوق العالمى وما يرتبط به من أنظمة تمثل ضغوطاً مباشرة وتحديات صعبة تضغط بشده على الدول النامية ، وفى مثل هذه الظروف تزداد الحاجة إلى قيادات وسلطة قادرة على توجيه السلوك والسيطرة على الأحداث ومراقبتها ، ومما يزيد هذه الأهمية هو نقص الخبرة فى التنظيم الإجتماعى والسياسى لدى جماهير هذه الدول ... حيث ظلوا سنوات عديدة يعانون من السيطرة والخضوع تحت حكم أتوقراطى ونظام استعمارى .

– عن دور الصفوة فى تنمية المجتمع عامة والمجتمعات النامية بوجه خاص يمكن الرجوع إلى : بوتومور : الصفوة والمجتمع ... دراسة فى علم الاجتماعى السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى ، علياء شكرى ، محمد على محمد ، السيد محمد الحسينى ، دار المعارف ط ٢ ١٩٧٨ ص ١٠٩ .... [المترجمة] .

فهى تحصل على بقائها وقوتها أو أى حركة سياسية منها "الدولة المسيطرة" . فهم ليسوا القوة السياسية الوحيدة ، ولا حتى بالضرورة القوة السياسية المسيطرة فى الحياة الاجتماعية .

كل الأسئلة الكلاسيكية عن فلسفة السياسة ، تناقش فى المدارس ، والمصانع ، والأسر، أو أى علاقات إنسانية : أسئلة عن "الطاعة" "سلطة القانون" "الموافقة" "المصالح العامة" "الحرية" "العدالة" ، "الديمقراطية" ، "المساواة" "الاهتمام العام" وهكذا . انتاج الغذاء على سبيل المثال يمكن أن يكون أكثر أو أقل حرية ، أكثر أو أقل عدالة ، أكثر أو أقل ديمقراطية . إنه لمؤشر سيىء أن تكون الدولة وحدها هى التى تقسم الفئات "السياسية" بينما معظم الأشياء التى تعملها تثير التساؤلات عنها . ويمكننا القول والتساؤل عن أشياء كثيرة أخرى متداخلة فى العلاقة . وإلى هؤلاء الذين ينكرون هذا ويقولون أن نظام الدولة القومية المرعب له سماته الخاصة وله وجوده الخاص الفلسفى . والسؤال سيكون ما هو الفرق ؟

skillen, R., Ruling Illusions : Philosophy and social Order, Harvester Press, 1977, pp. 40 - 43; quoted in Bernstein, H., Corrigan P. and Thorpe, Mary Developed or Being Developed : The Open University Press, 1983, p. 70.)

هذا الرأى له مشاكل ، إذا لم ترتبط الأنشطة "السياسية" بالمؤسسات الرسمية للدولة ، عندئذ نجد أن استراتيجيات التنمية التى تقودها الدولة ليست هى فقط الطريق المؤدى إلى الأمام . أنظر مقتطف نيريرى .Julius N فى الفصل التاسع حيث يقول إن الناس عليهم أن "ينمو أنفسهم" وهذا لا يعنى آراء غامضة عن "العمل معا" ولكن عن السيطرة على مجالات حياتهم كلها بما فيها أسرهم ، ووضع المرأة ، ومؤسسات الإنتاج ، والتعليم والثقافة . ماوتسى تونج (الذى قاد عمليات التنمية فى أكبر دولة من الدول المتخلفة ، [الصين]) قال الآتى : الثورة الاشتراكية فى واجهتها الاقتصادية (فى ملكية وسائل الانتاج) غير كافية فى حد ذاتها ولا يمكن أن تكون متماسكة . لابد أن يكون هناك ثورة إشتراكية شاملة a thorough socialist قائمة على السياسة وعلى جبهات ايدولوچية .

(Mao Tse-tung, fifteen theses on socialist construction, in On Krushchev's Phoney communism and its Historical lessons for the World, foreign Languages Press, P. 65.)

مايقصده "ماو" أن التحول الاجتماعى والتنمية لا يكون فقط من خلال إعادة تنظيم

الانتاج وخلق الوفرة ولكن أيضا وأكثر أهمية ، هو تغير الناس عقليا وأخلاقيا وكذلك علاقتهم بعضهم مع بعض ، أى ما تعنيه كلمة "إنسانية" أى أن يكونوا بشرا .

كل هذه الآراء مجردة . ولكى نشرحها بأكثر دقة لابد أن ننظر فى مجال علم الاجتماع ، وعلم الاجتماع التربوى ، والتى تحيط بنوعين مهمين التعليم كعملية فنية تهدف إلى تحسين مصادر البشر فى الانتاج وكذلك فى "التنمية" والتعليم كايدولوجيات ، وأنشطة سياسية وأخلاقية .

التعليم ، السياسة والايدولوچيا :

كل المجتمعات تعلم أطفالها وفى المجتمعات المتقدمة هذه العملية مثل العمليات الكثيرة فى الحياة أصبحت رسمية ورشيدة ، وبالنسبة لأصحاب نظرية التحديث لم يكن هناك شك فى أن التعليم هو أفضل شىء ، ولا يمكن أن نقول إننا ذهبنا بعيدا إذا ما قلنا إن التعليم هو الطريق الأضمن والأسلم للتنمية ، فهو يقدم لنا الناس المهرة الذين يصبحون أكثر إنتاجا ، فهم رأس المال البشرى ، إن التعليم يكوِّن اليقظة القومية . فالتعليم يحرر الناس من قيود الوهم والخرافات مساعدة لهم فى التعقل عند تقبلهم للتقاليد كما يقول "ماكس ڤيبر" . بكل تأكيد ، فى كل مجتمعات دول العالم يحظى التعليم بقيمة عالية من الحكومات والناس . إنه الطريق للتقدم الاقتصادى والخروج من مشكلة الحياة الريفية .

أما أصحاب نظرية التبعية فنجد أنهم لا يتفقون مع هذا التقييم أو هذه الدراسة ... فبالنسبة لهم مفهوم ومحتويات التعليم فى دول العالم الثالث ينظرون إليها من منظور آخر للتبعية. فتعليم دول العالم الثالث كما يقولون يأخذ نماذج تعليم الدول المتقدمة على أنه النموذج الأمثل لهم . وهو يؤكد على تعليم الصفوة على حساب الفقراء ، ومحتوياته لا تتمشى مع احتياجات الدول الفقيرة والتى تحتاج إلى مزارعين أكثر جودة وعمال أكثر مهارة وقلة من المحامين والاقتصاديين ورجال الاجتماع وعلماء الطبيعة * أما الأسلوب الغربى فى التعليم فانه يعمق

---

* تختلف ظروف القوى العاملة فى الدول النامية من حيث وفرتها ومستوى تنميتها فبينما نجد بعض هذه الدول قد قطعت شوطا طويلا فى تنظيم وتطوير قواها البشرية وأوشكت على الاكتفاء الذاتى فى بعض قطاعات القوى العاملة كالمديرين والمعلمين والمشرفين ، والفنيين والحرفيين ، نجد أن البعض الآخر ما زال يعانى نقصا شديدا فى مختلف قطاعات قواه العاملة .
منصور فهمى ، إدارة القوى البشرية ، ص ٢٦ .... [المترجمة] .

التبعية . كما أن الأنساق التعليمية لدول العالم الثالث قد أسست خلال فترة الاحتلال ، على نماذج أوربية كانت ضرورية بالنسبة للناس والحكومات ، واستمرت تأخذ قسطا كبيرا من الميزانيات القومية . أما بالنسبة للدولة فالتعليم "شيء جيد" بالرغم من أن الرابطة بين التعليم والنمو الاقتصادى والتنمية مازالت غير مفهومة (أنظر إطار ٧ – ٣) . أما بالنسبة للناس فهو أى التعليم يمثل لهم الأمل الذى يدخلهم ضمن طبقة الصفوة ، وذلك بالحصول على وظيفة "تخصصية" أو مهنية أو بالعمل مع الدولة فى أى وظيفة حكومية . إذن هناك اهتمام مشترك بين الدولة والناس فى رغبتهم فى التعليم . ومع ذلك فقد رأينا لدى كثير من علماء الاجتماع أن الدولة ليست حكما محايدا فى ممارسة اللعبة الاجتماعية . فهى تمثل مصالح طبقة . وكيف تنمى مصالح هذه الطبقة بالتعليم ؟ وهل جهل الجماهير هو أفضل ضمان للنظم الاجتماعية ؟ .

إطار ٧ – ٣ التعليم والنمو الاقتصادى

كتب رونالد دور R. Dore عام ١٩٧٦ عن العلاقة بين التعليم والنمو الاقتصادى ، وأوضح بعض المشاكل من إقامة العلاقة بين هذين المتغيرين ... إن الاقتصاديين لم يبدأوا فى معالجة مشاكل التعليم من حيث الدقة ودرجات الدقة الذى يسهم بها التعليم فى النمو الاقتصادى إلا فى العشرين سنة الأخيرة .

وهناك عدة مداخل قد جربت . واحد منها ... هو مقارنة عبر دولية . وإذا ما استمرينا فى الجدل أو النقاش نجد أن التعليم يسهم فى النمو الأقتصادى ، إذا فالبلاد التى لديها تعليم اكثر هى التى لديها نمو اقتصادى أكثر . إنها للعبة ساحرة نلعبها... فمدى الاختلافات غير محدد . فالتعليم يوضع عند الاختيار فى الدرجة الأولى ، أو الثانية ، أو ثالث إدراج ، أو أى إجراء له ثقله من الثلاثة ؟ إذا ما كانت هى عملية تسجيل العلاقة بالمجتمع الكلى أو مجموع السكان وهى الأسهل فى قياسها ، أو العلاقة لعمر الجماعة المناسب وهى أكثر صعوبة ؟ وإذا ما كان التسجيل فى وقت معين ؛ أو المخرجات أو العائد المدرسى ، أو مجموعة العاملين بالمدرسة كقوة عمالة ، أو هل يستخدم المرء مؤشرا مخالفا مثل حجم المصروفات التعليمية أو تقدير مستوى الذين يجيدون القراءة والكتابة . إن مستويات النمو الاقتصادى ممكن قياسها بعدة طرق : فحساب الدخل القومى للفرد GNP ، عدد كيلو مترات الكهرباء ... وهكذا إذا ما استقرينا على المؤشرات ، هل يقارن الفرد فى وقت معين بدخل الفرد فى نفس الوقت أو بعد عشرين سنة تالية أو يقارن المرء بنسبة زيادة الدخل فى عشرين سنة قادمة – أو بزيادة

نسبة التسجيل مع زيادة النسب الفرعية للدخل القومى ؟ وهل بالإمكان تنقية التحليل بإضافة متغيرات أخرى والتى يعتقد أنها وسيط بين الاستثمار التعليمى والدخل الإقتصادى ، على سبيل المثال ، درجة المساواة للنسق التعليمى ، أو مستوى "الحراك السياسى" أو "التحديث السياسى" .

(Dore, R., The diploma Disease, George Allen and Unwin, 1976, p. 85.)

التعليم ، الفرص وعدم المساواة

لماذا يدرس الناس ولماذا تنفق الحكومة الكثير على التعليم ؟ أحد الآراء هو أنك تدرس لتحسن حالتك – والتى قد تعنى الكثير مبتدئا بالعديد من الأشياء من كونه قادرا على تحسين مستقبله ومركزه إلى كونه شخصا مرموقا . والحكومات ، من الجانب الآخر ، تهتم بكل المجتمع وعلى وجه الخصوص مستوى الإنتاج – والكل يهدف عامة إلى حاضر ومستقبل جيد للأجيال . ولتحقيق هذا الغرض نجد النسق التعليمى ينتج أناسا جيدى التمرين لسد حاجة الدولة . التعليم إذن هو ربما أهم مكانة فى المجتمع حيث تحول المدخلات البشرية إلى مخرجات للمجتمع الكبير : وأيضا نجد النمو الاقتصادى مرتبطا ارتباطا كبيرا بالتعليم *

أحد الفروض الهامة لهذا الرأى هو أن التنمية فى الدول المتقدمة تحدث على الأقل فى جزء لأن هناك انتشارا واسعا للتعليم بواسطة الدولة ، ومن ثم نجد الاستثمار فى مجال التعليم يمثل جزءا حيويا فى عمليات التنمية فى الدول المتخلفة ، ومحتويات التعليم – المناهج – لابد وأن تكون مشابهة لما هو موجود فى الدول المتقدمة ** .

---

* تواجه الدول النامية مشكلة فى توفير احتياجاتها من القوى العاملة المدربة . فهناك نقص شديد فى مختلف فئات العاملين فى النواحى العلمية والتخصصات المهنية والفنية . فالتطور العلمى والتكنولوجى يسير بخطوات أسرع من تراكم الخبرة والمهارات فى القوى العاملة الموجودة فى الدول النامية ، مما دفع بعض هذه الدول الى استيراد المهارات والخبرات ، كما لجأت دول أخرى إلى الإسراع بوضع برامج تدريب سريعة لسد العجز من الخبرات الوطنية .... [المترجمة] .

** هناك انتقادات – وإن كانت كتابات مغرضة إلى حد كبير ولها أهداف ايديولوچية تريد تحقيقها – وجهت إلى العقلية العربية وما يعتريها من إنفصام وثنائية نتيجة لسيطرة وتغلغل النظم التعليمية فى الدول المتقدمة فى النظم التعليمية بالدول النامية التى اكتسبت به قوى الاحتلال الأوربي كانتة من كانت السيطرة على البلاد . وكان التأثير النموذجى الذى نتج عن هذه الثنائية – لغة وثقافة البلد الأصلى ولغة وثقافة الغرب – أن شعر أن لغة وثقافة البلد النامى هى وسيط أدنى ولغة غير كفء للتعبير عن كثير من الأفكار الأشياء ، وهذه الثنائية هى من أكثر المظاهر الواضحة استعداد للتعبير عن الهامشية التى تكتنف الصفوة من المتعلمين فى معظم البلاد النامية ، ويبدو ذلك للعين وعلى سبيل المثال فى المنازل وتأثيثها وفى الملبس والمأكل وفى السلوكيات ... مما أفرز نوعا من الصفوة المتعلمة الرافضة لكلا الثقافتين الثقافة الأم والثقافة الدخيلة ... [المترجمة] .

إن أهم المشاكل المرتبطة بهذا الفكر أنه يفترض أن : (أ) أن طريق التنمية واحد لكل المجتمعات ، (ب) وأن محتويات التعليم واحدة فى كل المجتمعات .

فى الدول المتقدمة ، النمو الصناعى والاقتصادى لم يكن متقدما قبل أن تظهر المدارس الرسمية كقاعدة لنشر التعليم . فنجد التعليم الأولى أو الابتدائى أصبح متاحا للجميع فى بريطانيا فقط فى عام ١٨٧٠ ، وتأخر التعليم الثانوى إلى عام ١٩٠٢ .

وقد رأينا أن التنمية فى الدول المتقدمة لم تحدث من الداخل فقط بل اعتمدت بشدة على مدخلات المواد الخام والعمالة فى مستعمرات الامبراطوريات . ولهذه الأسباب نجد أن التنمية فى الدول النامية لابد وأن تأخذ طريقا آخر مختلفا ولايكون أقل لأن أغلبية الناس فى دول العالم الثالث يعيشون وينتجون فى الريف ولم يكن هناك "تحول بنائى" . وفى دول العالم الثالث ، حيث القطاع الاقتصادى الصغير فتجد بعض الناس يحصلون على أجر يؤمن لهم حياتهم من خلال وظيفة حكومية أو الصناعات الخاصة . ونسبة كبيرة من الناس تعتمد فى حياتها على الإنتاج الريفى ، أو عمل غير مستقر فى المدينة "قطاع غير رسمى" . وهذا يعنى بالنسبة لمعظم الأطفال أن المستقبل لا يحمل فى طياته وظيفة ذات أجر منتظم ، ولا يعنى أن المرء عليه أن يناضل من أجل التسلق لمصلحة شخصية . ومع ذلك فدول العالم الثالث تؤمن إيمانا كبيراً بالتعليم واضعة التعليم فى درجة أولى من امراحل التنمية ، أما فى الدول المتقدمة نجد أن التعليم انتشر مع قطار النمو الإقتصادى . وربما يكون هذا المفهوم الخاطىء "للتعليم" – التعليم من أجل الذهاب للمدارس والحصول على مؤهلات وتخصصات وليس التعليم من أجل الإعتماد على النفس . التعليم كمخرج ثقافى واقتصادى وسياسة تبعية Political dependency (أنظر إطار ٧ – ٤) .

إطار ٧ – ٤ نيريرى والتعليم

قال الرئيس السابق لتنزانيا "نيريرى" لابد وأن يؤكد النسق التعليمى لتنزانيا على المحاولة الاشتراكية وليس على تقدم الفرد ، لابد وأن نؤكد على مفاهيم المساواة وتحمل المسئولية لإعطاء خدمات تؤدى إلى قدرات خاصة ، سواء أكانت فى التجارة أو تربية الماشية بإخراج سلالات – أو فى المثابرة أو البحث الأكاديمى أى أن التعليم يخدم فى جميع هذه المجالات وعلى وجه الخصوص لابد وأن يتغلب تعليمنا على الإغراءات التى تؤدى إلى التكبر العلمى أو العجرفة لأن هذا يؤدى إلى أن يحتقر المتعلمون هؤلاء ذوى القدارت غير الأكاديمية

أو الذين ليس لديهم قدرات خاصة ولكنهم بشر . ان مثل هذا التكبر أو العجرفة لابد وأن يختفى فى مجتمعنا الذى ينادى بالمساواة بين المواطنين .

(Nyerere, J. K., Daily News, Dar es Salaam, 21 May, 1971.)

إلى جانب أن المناهج ربما يعاد تشكيلها بعيداً عن المحتويات الموضوعة فى العصر الاستعمارى أو التى تقلد الدول المتقدمة فهناك نقطة أخرى لابد من أخذها فى الاعتبار وماذكرناه من قبل فى علم اجتماع الدولة وعلى وجه الخصوص علاقة الدولة والقطاع الريفى .

منذ سنوات عديدة عشت فى مجتمع ريفى صغير فى السودان وفى نهاية الاجازة الصيفية وخاصة عندما كانت قلة من الأولاد قد ذهبت للدراسة فى المدرسة الثانوية وكانت فى طريقها للعودة وجدت أن عماتهم وعمومهم الكبار يأتون لتوديعهم وفى أثناء التوديع كانوا يدعون لهم بأن يحصلوا على وظيفة حكومية "نرجو الله أن تكونوا موظفين" * هذه الجملة الصغيرة شملت نسقا كاملا من المعتقدات عن دور التعليم ومكانته فى الدولة . وأن القيمة الاجتماعية لا تأتى إلا بشغل وظيفة فى الدولة ، والحصول على الدبلومات هو الطريق للنجاح والمعرفة وأكثر من ذلك ما قالته الدولة نفسها : إنها تدعم التعليم وتشرف على العملية التعليمية من المناهج والحوافز ووصف ذلك على أنه مرض الدبلومات كما قال رونالد Ronald Dore (انظر إطار ٧ – ٥) .

إطار ٧ – ٥) مرض الدبلومات

لسوء الحظ ليس كل المدارس تعنى التعليم ، بل معظمها يعنى مجرد شهادة لكسب العيش فى كل مكان... ، فى بريطانيا كما فى الهند ، فى روسيا كما فى فنزويلا التعليم ما هو إلا مجرد إعطاء شهادة لكسب العيش كما كان من قبل فى عام ١٩٢٠ أو حتى فى عام

---

* لقد أدى الأقبال الشديد فى معظم الدول النامية على الأعمال الحكومية والاحجام عن العمل فى القطاع الخاص إلى إصابة القطاع العام بالتضخم وكان من نتائج ذلك عدم الاستفادة القصوى من عدد كبير من الأيدى العاملة ، وبالتالى انخفاض الانتاجية بين العاملين فى الوظائف الحكومية المختلفة . فمثلا نجد فى الهند عدد كبير من الخريجين الجامعيين الذين يفضلون الأعمال الحكومية البسيطة على الأعمال النافعة فى القطاع العام . ونفس الشىء ما حدث بالنسبة لمصر وكثير من دول العلم الثالث ، ونتيجة لذلك ولإسباب أخرى فقد أدى ذلك إلى اصابة اجهزة الدول بالتضخم وانتشار البطالة بنوعيها .
لمزيد من المعلومات حول البطالة كمشكلة والأساليب الممكنة لحلها وكيفية استغلال الطاقة البشرية يمكن الرجوع إلى منصور فهمى : إدارة القوى البشرية فى الصناعة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الخامسة ١٩٨١ .... [المترجمة]

١٩٥٠ وأن الحصول على مؤهلات أكبر هو مجرد مؤهلات للكسب يصاحبها قلق وملل وتدمير لحب الاستطلاع والخيال وباختصار هى ضد التعليم من أجل.. الانساق المدرسية لدول العالم الثالث ... هذه ... تصبح كارثة فالتعليم الابتدائى والذى يخدم أساسا أغلبية التلاميذ نجد أن هناك ظاهرة "التسرب" والتعليم الثانوى والجامعى يعصر كل ذرة من حب الاستطلاع والخيال قبل أن يتخرج المرء إلى البيروقراطية ليأخذ مسئولية تشكيل أقدار بلده ومن ثم وجدت جيوش تتزايد من خريجى المدارس الثانوية والجامعية والذين لا يجدون وظائف خالية فى هذا النظام البيروقراطى – وبالرغم من هذه الأعداد الكبيرة من المتعلمين العاطلين – مما يسبب القلق والضغوط من أجل إنشاء العديد من المدارس الثانوية والجامعات لكى تكون هناك "إتاحة الفرصة" وذلك فى الدول المتقدمة ... هو نتاج استخدام المدارس كوسيلة لتصفية الأجيال للحصول على من يحصل على الوظائف المجزية وتاركين عملية التصفية هذه لتسيطر – حتى لو أنها تبدو لتمحو أو تطمس – الوظيفة القديمة للمدرسة لتوصيل التعليم

(Dore, R., 1976, pp. ix - x.).

إن مرض الدبلومات هذا له تأثير اجتماعى فهو يعزز رأى المجتمع فى الإصرار على أن التعليم الأكاديمى والسمو بالعقل يقابله العمل اليدوى ويؤكد على أن التعليم الأكاديمى لابد وأن يستمر على خط موازٍ لما هو فى الدول المتقدمة وبما أن الدولة تدار أمورها بأناس خرجوا من الطريق الأكاديمى فهم يعززون نجاحهم وشرعية ثرائهم وقوتهم متناقضين بذلك مع "الفشل" ، والفقر وفقدان القوة فهؤلاء الناس لا يذهبون أبداً إلى المدرسة ولم يحصلوا على دبلومات . كل ذلك جزء من الإيدولوجية الخفية لمحتويات التعليم وعلماء الاجتماع الماركسيين يجادلون ، على أن التعليم طريق يخدم الدولة ومصالح الطبقات السائدة معطين لمراكزهم شرعية من خلال فكرة التعليم فهناك إذن رابطة بين الدولة والتعليم والإيدولوجية والقوة وإذا أردت أن تحصل على وظيفة والتى تهبك مكانة اجتماعية ودخل وقوة فعليك أن تتعلم وتتبع القوانين التعليمية . فغالبا هذا لا يعنى فقط تعليم الأفكار والقيم المناسبة للشخص المتعلم ولكن يتعلمون لغة أجنبية ربما تكون الإنجليزية ، أو الفرنسية ، أو البرتغالية ، أو العربية لأن هذه هى لغة الصفوة . حتما التعليم وعدم المساواة مرتبطين ارتباطاً وثيقاً فى كثير من الدول وربما يوجد عدم المساواة فى ميزانية التعليم بين المناطق وداخل المناطق .

وهناك جماعات اجتماعية مختلفة ربما يكون لها قدرات مختلفة لترسل أبنائها للتعليم . وداخل المنازل البنات أقل فرص فى الذهاب للمدارس عن الأولاد أما الأولاد فيجدون تشجيعا على التعليم لفترة طويلة بقدر الإمكان . فالدولة تضع القوانين ، ولكن كل واحد له نفس فرصة التعليم أو دخول اللعبة . إذا ما قلنا ذلك بطريقة أخرى ولإيجاد العلاقة بين التعليم والدولة والسياسة ، فالتعليم يبدو كما لو كان يعطى قوة لبعض الناس بإعطائهم المبادرة لفهم اللغة السرية وثقافة الصفوة بينما الآخرون يعتبرون أنفسهم فاشلين لأنهم غير قادرين وإذا أحس الناس أنهم فشلوا لأنهم لم يكونوا جيدين بالدرجة الكافية وبالتالى فهم يتقبلون عجزهم على أنه الوضع الطبيعى والمناسب . وإذا ما وصلنا لهذا المستوى الإيدولوجى والثقافى تستطيع الدول أن تسيطر . والبعض يرى أن هذا النوع من التعليم أرخص وسيلة وأكثر فاعلية من البنادق وطرق الخداع .

التعليم والحرية :

فبالرغم من وجود أوجه شبه بين "دور" ، ونيريرى Nyerere, Dore إلا أن كل له مداخل مختلفة . فعند دور Dore مشكلة التعليم فى دول العالم الثالث (وفى العالم الأول والثانى لدول الغرب والكتلة الشرقية) . إنها ليست مشكلة تعليم . إنها مشكلة التدريب والنظام . فهى لا تهدف إلى تشجيع حب الاستطلاع ولكن هو الاختيار . إن المشكلة لدى "دور" ليست فى المدرسة ولكن فيما يدرس فى المدرسة ولكن بالنسبة "لنيريرى" فالمشكلة مختلفة . فهو يرى أنه ليست بالضرورة أن تكون المناهج ملائمة لبلدته ولكن هى أيضا تعمل على تغيير قيم أهل البلدة لتناسب مجتمعا تعاونيا اشتراكيا وهو مهتم بالتعليم الأخلاقى ولذا فالتعليم بالنسبة لهم ظاهرياً نشاط سياسى – فلابد أن نُشيد القيم التى يعتبرها ضرورية للمجتمع الاشتراكى وهنا تثار بعض الأسئلة لتطرح على كليهما وهل أحد هذين الرأيين يعين الناس على اختيار حياتهم الخاصة ؟ هل يتحسر "دور" Dore على تعليم الصفوة والذى لم يكن متاحاً للكل ولكنه للطبقة الراقية فقط والتى مازالت تقسم الناس إلى فاشلين وناجحين ؟ من يؤكد لنا أن أراء وقيم "نيريرى" أو وزير التعليم تميل إلى اهتمامات أو مصالح القاعدة الشعبية والمفروض أن التعليم يفيدها .

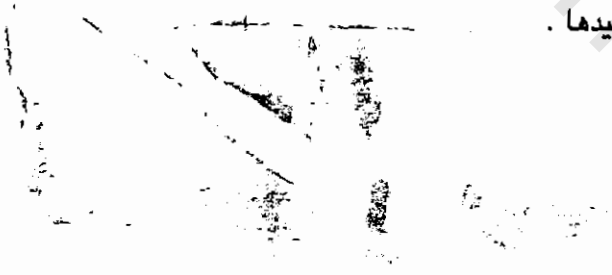

التعليم والقوة :

وعلى النقيض من "دور" "Dore" ، ونيريرى Nyerere نجد إيفان إليش Ivan Ilich ، وايفرت ريمر Everett Reimer ، وبولو فرير Paulo Freire يعتبرون المدرسة شيئا سيئا ، وان التعليم الرسمى وسيلة للأخضاع . وجميعهم يتستخدمون ضمنيا آراء الماركسيين "الوعى الزائف False consciousnles" لشرح ماهو التعليم . فالتعليم بالنسبة لهم يفضل أن يكون خارج المدرسة ، ونشاطا يمد الناس بالمثقفين وبالقوة الثقافية ليقاوموا السلب والطلبات غير العادلة للدولة . بالنسبة لـ "إلليش" على وجه الخصوص . التعليم طريقة لتعميق التبعية من جانب الضعيف على القوى . ومطالبته للمجتمع المفتوح الذى لا تقيده مدرسة لتلقى التعليم (كشىء واقعى ، ورعاية صحية) ، بعيداً عن سيطرة الدولة وتجعله متاحا بطرق أخرى . (أنظر إطار ٧ – ٦)

إطار ٧ – ٦

إلليش Illich والنمط المدرسى وغير المدرسى

لماذا نقيم مدارس ...

كثير من الطلاب وخاصة الفقراء يعرفون بديهياً ما تفعله المدرسة من أجلهم . فهم يعلمونهم ليشوشوا بعض العمليات والحقائق . وإذا ما حدث هذا يظهر منطق جديد : كلما كان هناك علاج حصلنا على أفضل النتائج ، أو الصعود إلى أعلى يؤدى إلى النجاح . فالطلاب لذلك يذهبون إلى المدرسة ليخلطوا التدريس بالتعليم ، درجة متقدمة من التعليم ، دبلوماً مع الفهم والقدرة على قول شىء جديد . وهنا يدرس ليتقبل الخدمة بدلاً من القيمة . والعلاج الطبى يساء فهمه على أنه الرعاية الطبية والخدمة الإجتماعية على أنها تحسين المجتمع . وحماية البوليس للخوف من السرقة ، والجيش لضمان الأمن القومى – ليس التعليم فقط بل المجتمع الواقعى أصبح مدرسياً . الأغنياء والفقراء على حد سواء يعتمدون على التعليم والمستشفيات التى تحمى حياتهم وتكون آراءهم العامة وتحدد لهم ما هو قانونى وما هو غير ذلك وكلا الرأيين غير مسئول . والتعليم الذاتى لا يعتمد عليه التنظيم الاجتماعى والذى لا يدفع له من السلطة كنموذج للعدوان والخنوع ... وفى كل مكان ليس التعليم فقط ولكن

المجتمع ككل يحتاج لما يسمى باللا مدرسية ... ... deschooling فالفقراء اجتماعياً لا حول لهم ولا قوة واعتمادهم المتزايد على رعاية المؤسسات يزيد من عجزهم

(Illich, I., Deschooling Society, Penguin, 1975, pp. 9 - 11.)

فى نظر إلليش مجتمع اللا مدرسية يعنى أن نعترف أن معظم ما يتعلمه الناس يكون خارج غرف الدراسة . ولذلك لابد أن يحدث التعليم من خلال الحياة وذلك عن طريق "شبكات تعليمية" (الاستعدادات غير الرسمية والرغبة تأتى من أفراد لهم رغبة أو إستعداد للتعليم ومدرسين لديهم استعداد ويتقابلون عن طريق ترتيبات متبادلة) .

ربما تكون آراء "إلليش" أكثر راديكالية ومثيرة للإهتمام فيما يفكرون عن خبراتنا التعليمية ، ولكن فى النهاية هو أكثر ملائمة للمجتمعات ذات المستوى العالى للمعيشة ، بعيدة عن خصائص القاعدة الأساسية للكفاح من أجل البقاء والتى تميز معظم دول العالم الثالث . هذا مجرد اعتقاد ، ولكن "بولوفرير" الذى يختلف فى التفاصيل عن "إلليش" نجده يتبع خطا مشابها . والفرق فى أن "بولو" كان ومازال ممارساً – قبل أن يذهب إلى المنفى بعيدا عن الوطن "البرازيل" عام ١٩٦٤ – فلقد كان وزيرا للتعليم ومخططا فى المجلس القومى للتخطيط وتعليم الكبار ... كان مدخله لا يتفق وغير محبوب للحكومة العسكرية التى دخلت السلطة عام ١٩٦٤ ، وخاصة أنه من المطالبين بتعليم الناس القراءة والكتابة حتى تستطيع الهروب من "الوعى الزائف" وسيطرتهم على حياتهم الخاصة – وهى عملية يسميها "إحياء الوعى" . وعلى المدى الواسع نجد أن أفكار كل من "إلليش" و "ريمر" و "فرير" لها تأثير قليل على السياسة التعليمية وممارستها فى دول العالم الثالث . وربما تكون قد أثرت قليلا فى اللغة ، ولكن صورة "دور" عن الموقف مادية أكثر من كونها تعليلا دقيقا لكيفية وجود الأشياء . التعليم فى معظم البلاد هو اختيار مرتفع ، يفضل الاثرياء ، ويوعدهم بالوظيفة فى "القطاع الحديث" . إن التسجيل فى المدارس قد زاد ، وارتفع نسبة من يقرأون ويكتبون . ولكن معظم الناس يفشلون ومعظم الموارد تخصص للتعليم الثانوى والعالى . وفى بلاد قلة خصصت لتعليم الكبار القراءة والكتابة ولها الأفضلية . أما بالنسبة للريف والحضر الفقراء والبنات على وجه الخصوص فإن التعليم يمنحهم القليل ما عدا التأكيد على ضعفهم وفشلهم أى أن المناطق

الريفية والحضرية الفقيرة نجد أن السيدات والفتيات على وجه الخصوص يعانون من قلة التعليم والتركيز على أنهن ضعيفات "فاشلات" .

الملخص :

فى هذا الفصل حاولت شرح كيف كانت الدولة مركزية فى التنمية والنمو الاقتصادى . هذه المركزية استمرت فى كل دول العالم الثالث . بينما نظرية التحديث وجدت أن الدولة نوع من الحكم الاجتماعى وحكومة ، وعلماء الاجتماع الماركسيين يرون أن الدولة كمشكلة لمن تعمل ولمن تساند ومن تساند سياسة هذه الدولة ؟ وقد استخدمت مثالاً للسياسة التعليمية لأوضح أن هناك مشاكل خطيرة خاصة بمحتويات وشكل التعليم فى دول العالم الثالث ، وبالرغم من وجود النظريات الراديكالية "لإليش" و "ريمر" و "فرير" ، فهناك أمل ضعيف فى التحسن . فالتعليم بهذا المعنى أو حتى فى المعنى الذى يستخدمه "دور" يشكل تهديداً خطيراً لقوة الدولة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن

النـوع والتنميـة

يحتقر الرجال الوظائف التى تشغلها المرأة وتكون خاصة بالنساء سواء كانت فى الزراعة أو التجارة ويترددون بشكل طبيعى فى المشاركة فى مثل هذه الأعمال ، أنظر أعمال "بزرب" عن دور المرأة فى التنمية الاقتصادية

(Boserup, E., Woman's role in Economic Development, George Allen & Unwin, 1970.)

النوع وعدم المساواة Gender and Inequality .

بالرغم من أن المرأة تشكل نسبة ٥٠٪ من نسبة السكان فى العالم نجدها فى كل الأقطار بلا استثناء ذات مكانة اجتماعية أقل من مكانة الرجل . والمقصود من ذلك عمليا هو أنهم يعملن ساعات أكثر ، ويتلقين فرصاً تعليمية قليلة ورعاية طبية ضئيلة وليس لهن السيطرة الكاملة على حياتهن . وهذا الفصل يتعرض لمكانة المرأة فى التنمية . ففى السنوات الأخيرة أجريت الكثير من الأبحاث بواسطة سيدات عاملات متخذات لهن المدخل النسائى Feminist approach والحركة النسائية ليست فقط حركة سياسية اجتماعية تهدف إلى تحسين مركز المرأة ، ولكنها انطلاقة لنظريات ولغة جديدة للكلام عن العالم . لمزيد من التفاصيل أنظر سبندر

Spender D., Man Made Language, Routledge and Kegan Paul, 1980)

فهو يتحدث عن العالم ككل . فهو يبدأ من الفرض القائل : من الممكن النظر إلى التاريخ والمجتمع من وجهة نظر المرأة . حيث كان المنظور الذكرى هو المسيطر سابقا مستبعدا المرأة . ولقد أكد بعض رواد الحركة النسائية على أنه بالرغم من المعاملة المجحفة للمرأة فيمكن تفسيرها من خلال علم الاجتماع الماركسى وذلك بدراسة علاقات المرأة بوسائل الإنتاج ، إلا أن هذا المدخل لا يمكنه الاستمرار طويلا . ولهذا السبب فهم يستبعدون النظرية الماركسية . وبدلا منها أثبتوا أن المرأة فى جميع المجتمعات تابعة للرجل . هذه التبعية التى لا تظهر مع التنمية فى المجتمعات الرأسمالية ولكنها موجودة فى كل المجتمعات . وهذا حقيقى ومشاهد فى المجتمعات الزراعية المعيشية حيث تأخذ المرأة الدور الأساسى فى عبء العمل وتتلقى فى مقابل ذلك أقل

جزاء "تقوم هى بهذه العملية مع الأولاد" ونجد نفس الشىء فى مجتمعات أخرى مثل المجتمعات الروسية أو الصينية حيث تختفى علاقات الإنتاج الرأسمالية ، فنجد المرأة تتلقى أقل الأجور بالنسبة للرجال وتشغل وظائف ذات قيمة أو تأثير ضعيف . ومن نتائج أو انعكاس هذه الحقيقة نجد أن بعض رواد الحركة النسائية يعلنون أن المشكلة الحقيقية هى فى ضرورة فهم النظام الأبوى والعلاقة العامة والتى من خلالها تصبح المرأة تابعا للرجل فى كل مكان وزمان (أنظر إطار ٨ – ١) .

إطار ٨ – ١ النظام الأبوى والطبقة

الفقرة الآتية توضح كيف مرت السيدات بمشاكل النظام الأبوى ... تاريخيا ... الجماعات التى تحكم بحكم الميلاد تختفى بسرعة ... حل محلها المجتمعات التى فيها الطبقة الاجتماعية هى مصدر الفوارق الاجتماعية ، وأيضا من خلالها يمكن الانتقال بين الطبقات . ومع ذلك ، يظل الفكر القديم الجامد عالميا – وهو سيادة طبقة لميلادها أو نسبها على طبقة أخرى – هو ما يسود فى عالم الجنس . فالقوة السياسية التي يتمتع بها الرجال عن النساء هى التى تسبب الانقسام السياسى فى المجتمع . والمجتمع الغربى مثله مثل أى حضارات فهو أبوى السلطة ، والذى من خلاله تحكم المرأة عن طريق الرجل أكثر من التدرج الطبقى ، وأكثر نظاما أو انتظاما ، وبكل تأكيد فهى أكثر تحملا . وفى المجتمعات الرأسمالية ، السيطرة على المرأة عن طريق الرجال غير واضحة مع اختلاف الطبقات بين النساء . وفى الواقع فإن مثل هذا الاختلاف الطبقى مؤقت ، لأنه مهما كان موطن ميلاد المرأة وتعليمها فهى لا تلتزم طويلا بارتباطها الطبقى مثل الرجال * . والتبعية الاقتصادية تجعلها تنتسب إلى مماس أى طبقة ، تعمل بالنيابة عنهن وبصورة مؤقتة . إن التقسيمات الطبقية هى التى تهم الرجل فقط أما الفروق الطبقية ذات المغزى فإنها لا توجد بين النساء ولكن هناك نسق أساسى للسيطرة هو النسق الأبوى وهو مستقل عن النظام الرأسمالى أو أى شكل من أشكال المجتمع "

(from Barrett, M., Women's Oppression Today, Verso Editions, 1984, p. 11.)

ماذا نعنى بهذه الجملة : "التبعية الاقتصادية تسبب الارتباط بطبقة تمثلها ولو كان الأمر مؤقتا" ؟

* زواج المرأة ينقلها من طبقتها إلى الطبقة التى ينتمى إليها الزوج إلى حد كبير ... [المترجمة] .

لا تتفق كل السيدات مع هذا الرأى السابق . ولكن أهمية النظام الأبوى هو شرح لمكانة المرأة التى مازالت موضوع العديد من المناظرات الساخنة .

السيدات كمستهلكات ومنتجات :

هناك طريقة لمقارنة تبعية المرأة ومكانتها عن طريق مقارنة فرصها التعليمية بفرص الرجل . فالقراءة والكتابة مؤشر جيد عن التعليم وهى أيضا مؤشر عن الممارسة الواسعة فى المجتمع . وهناك قضية أو مشكلة أساسية تواجه المرأة هى "ظهورهن" واختفاؤهن . وأنا أعنى بذلك أن خبرتهن يفترض دائما أنها متضمنة فى الإحصاءات التى تتعامل مع الرجل ، وأن التعليلات التى يقدمها المجتمع تعد لنا عن طريق الرجل ، وهى تحكى عن حياة النساء . والنساء الأقل تعليما لا يعبرن عن آرائهن أو مشاعرهن للجمهور وهكذا فالقراءة والكتابة مؤشر هام لقدراتهن للحصول على احتياجاتهن فى المجتمع (أنظر إطار ٨ - ٢) .

إطار ٨ - ٢ القراءة والكتابة عند النساء :

موريس (أنظر الفصل التاسع) يقدم معلومات عن النسب المئوية للقراءة والكتابة فى (ثلاث وسبعين) دولة . ونسبة القراءة والكتابة تحدد عن طريق النسبة المئوية للسكان البالغين لبلد ما والقادرين على القراءة والكتابة والذين وصلوا إلى مستوى التعليم الأساسى . فى ست دول فقط من الثلاث والسبعين دولة التى تعامل معها "موريس" نجد أن بعض السيدات حصلن على نسبة كبيرة من القراءة والكتابة بالنسبة للرجال . وفى قلة نجد إن النسبة متساوية وفى الأغلبية نسبة السيدات أقل عنها من نسبة الرجال

. فى الفصل التاسع سوف نرى أن "موريس فى دليله" دليل موريس للحياة الطبيعية - معدل المواليد والوفيات والتعليم - Physical quality of life Index Morris's (P.q.L.I) هو عبارة عن مؤلف لقياس التنمية . ويتكون هذا الدليل من ثلاثة أجزاء ... القراءة والكتابة جزء منها والجزأين الآخرين عن توقعات الحياة فى سن معينة ووفيات الأطفال . وكانت توقعات عمر المرأة أطول من عمر الرجل . وتقرير التنمية العالمى عام ١٩٨٥ - الصادر من بنك الإنشاء والتعمير والتنمية بواشنطن عام ١٩٨٥ جدول "٢٣" - يوضح هذه الحالة ويبين أن هذه الحالة بالنسبة للجميع ، ولكن خمس دول من المائة وست وعشرين دولة - وهى مجموع عدد الدول التى حصلوا منها على هذه المعلومات - هذه الدول الخمس الشاذة هى الهند وباكستان ونيبال وبوتان وبوبا فى غينيا الجديدة وفى الدولة الخامسة ايران نجد أن النسب واحدة . فالمرأة

تعيش أطول عمرا من الرجل ، وهى فى طفولتها أقل عرضة للوفاة من الذكور ولذلك أذا أخذ فى الاعتبار هذا الدليل (P.q.L.I.) فهو فى صالح المرأة ، ويوضح الدليل أن عند المقارنة بين المرأة والرجل بشكل عام وجد أن النتائج المسجلة تثبت أن هناك ثمانى وعشرين دولة ينخفض فيها نسبة النساء عن الرجال ، وبالرغم من أن الإحصائية الخاصة بالدليل – P.q.L.I. – تميل إلى أن تكون فى صالح المرأة بالطرق التى تم شرحها . ففى ثمانى عشرة دولة نجد الاختلافات كبيرة ففى جدول رقم "(١)" فى الفقرة التالية نرى كيف حصلنا على هذه النتائج :

جدول رقم (١) يظهر أنها بالرغم من أن كثيرا من الحالات طول عمر المرأة ووفاتها فى الصغر تميل إلى أن تكون فى صالحها عن الرجل ، فنجد أن فى تسجيلات scores المرأة تنجذب إلى أسفل بما تسجله من نسب ضعيفة فى القراءة والكتابة . وإذا كان دليل – P.q.L.I. – وسع ليأخذ فى الاعتبار مقاييس إضافية مثل ساعات العمل ، والمرض ، والرعاية الصحية ، وأهداف الاستثمارات وكثيرا من المؤشرات الأخرى الممكنة ، نجد أن الفجوة بين الرجل والمرأة فى استهلاك البضائع والخدمات المنتجة فى المجتمع كبيرة جدا . وبما أن الاحصائيات القومية نادرا ما تجمع ، خاصة عن المرأة ، ولذلك من الصعب أن تحدد مكانتها .

جدول رقم (١) دليل الحياة الطبيعية فى بعض الدول :

الدولة	التاريخ	الدرجة الكلية PqLI	أنثى	ذكر	الفروق أنثى – ذكر	ما نتوقعه من الحياة		الوفاة فى الطفولة		دليل القراءة والكتابة	
						أنثى	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى	ذكر
الجزائر	١٩٦٤	٣٦	٣٤	٣٨	– ٤	٤٣	٣٧	٥٢	٤٧	٨	٣٠
بورما	١٩٦٢	٤٥	٤٠	٤٩	– ٩	٣٧	٣١	٤٤	٣٧	٤٠	٨٠
كاميرون	١٩٦٥	٢٤	٢٠	٢٨	– ٨	٨	٥	٤٥	٤٨	٧	٣١
قبرص	١٩٦٠	٨٢	٨٠	٨٥	– ٥	٨٧	٧٦	٨٥	٩٠	٦٤	٨٨
مصر	١٩٦٠	٤٢	٣٩	٤٥	– ٦	٥٦	٤٨	٥١	٥٦	٩	٣٢
اليونان	١٩٦١	٨٤	٨٢	٨٦	– ٤	٩١	٨٣	٨٦	٨٤	٧٠	٩٢
هونج كونج	١٩٦٠	٧٦	٧٤	٧٩	– ٥	٨٣	٦٣	٨٦	٨٣	٥٢	٩٠
الهند	١٩٧٠	٤٠	٣٥	٤٥	– ١٠	٤٢	٤٤	٤١	٤٤	٢٢	٤٥
أندونسيا	١٩٧١	٤٩	٤٧	٥١	– ٤	٤٢	٣٧	٥٠	٤٤	٤٩	٧١

الأردن	١٩٦١	٥٤		٤٨		٦١		-١٣		٥٢	٥٢	٧٧	٨١	١٥	٥٠
ليبيريا		٢٦		٢١		٣١		-١٠		٣٨	٣٦	٢١	٤١	٤	١٤
ماليزيا	١٩٧٠	٦٧		٦٥		٦٩		-٤		٥٩	٥١	٨٧	٨٢	٥٠	٧٢
باكستان	١٩٦٦	٣٥		٣٢		٣٨		-٦		٣٧	٤٠	٥١	٤٤	٧	٢٩
بيرو	١٩٦١	٥٨		٥٥		٦٢		-٧		٥٣	٥١	٦٤	٦٠	٤٨	٧٤
سريلانكا	١٩٦٩	٨٠		٧٨		٨٢		-٤		٧٩	٧٥	٨٤	٨٠	٧٢	٨٩
تايلاند	١٩٤٩	٥٥		٥٢		٥٩		-٧		٤٤	٣٦	٧٦	٧٢	٣٦	٦٩
تركيا	١٩٧١	٥٥		٥٢		٥٩		-٧		٧٠	٦٣	٥١	٤٣	٣٤	٦٩
زامبيا	١٩٦٩	٣٣		٣٠		٣٧		-٧		٢٠	١١	٣٧	٣٨	٣٥	٦١

(Morris, M.D. Measuring the condition of the word's poor, Pergamon, 1979, P.P. 84-5.)

فى كثير من الحالات المعلومات الدقيقة لا تجمع . وكان هذا واضحا عندما درسنا محاولة المرأة وأسهامها فى الإنتاج . وغالبا ما نحصل على هذا من دراسة الحالة أكثر من حصولنا عليها من الدراسة الإحصائية . وفى كتاب عن المرأة "لفونتانا 1982 - fontana" تفسر "آن اوكلى" وضع المرأة فى مثل دراسة الحالة "للتانيولونج" وشعب "فيديليزان" واللذين يعيشان فى "الفلبين" . وقد لاحظت أن :

المجتمعات الرأسمالية الصناعية ، يوجد بها ثلاثة أنماط من الأنشطة الإنتاجية ، التى توجه إلى البضائع التى سوف تستخدم مباشرة ، والتى توجه لعمليات التبادل والتى تنتج فى دورة الإنتاج لقوة العمل.. وآخر هذه الأنماط هو سيادة المرأة كعاملة

(Oakley, A., 1982, p. 130)

وفى المجتمعات غير الصناعية تسهم المرأة بكم هائل فى إنتاج البضائع التى سوف تستخدم مباشرة والتى تتفق مع دورة العمالة القوية – والتى تعنى بالأعمال المنزلية ورعاية الأطفال والرجال والحيوان والمنازل .

وبين التانيولونج Tanulong وشعب الفيديليزان Fedilizan نجد أن نسبة ٦٠ – ٨٠٪ من إنتاج الطعام تنتجه النساء (أنظر إطار ٨ – ٣) ومثل هذا الإسهام شىء غير عادٍ . وفى دراسة عن ممارسة المرأة فى الزراعة وخاصة فى الدول الأسيوية وجد" بوزب " Boserup

أن المرأة تسهم مابين ٤١ – ٧٦ ٪ فى العمل الزراعى الذى يقوم به الرجال بالإضافة إلى عملهن النسوى (Boserup, E., 1970, p. 25.)

إطار ٨ – ٣ النوع وتقسيم العمالة بين تانيولونج وفيديليزان :

هذا الجدول المقتبس عن باكديان (١٩٧٧) يوضح توزيع العمل بين الرجال والنساء فى تانيولوج وفيديلزان ... من الخمسين مهمة الموجودة فى القائمة ، ٨٠٪ تؤدى بالتساوى بين الرجال والنساء ، وفقط ١٨٪ تؤدى كلية عن طريق الرجال . ولذلك فهناك نسبة كبيرة من إنتاج الطعام الكلى والمستهلك هى نتاج لعمل المرأة . مثل هذا الإسهام الهائل من العمالة لا يظهر فى الإحصائيات الرسمية . وذلك لأن العمل يكون إما للاستهلاك المباشر وإما من أجل استمرار دورة الإنتاج لقوة العمل . ولا شيء يؤخذ من هذا العمل فى الإحصائيات الخاصة بإجمالى الإنتاج الداخلى Gross Domestic Product G.D.P. (أنظر إطار ٩ – ٢) لأن هذا الجزء لا يباع فى الاسواق .

الزراعة أو مهام العيش

اعداد التربة	ب : B
تخطيط	ب : B
جمع الحشائش	ب : B
الحرث بالحيوانات	م : M
جمع الحشائش	ف م : F M
الرى	ب : B
إقامة خيال المآته	م ف : M F
حراسة وحماية الأرز من الطيور	ب : B
صيد الفئران	م : M
إقامة المصائد للفئران	ب : B
الكشف عن المحصول إذا كان معداً لحصده	ب : B
الحصاد	ب : B
بذر الحبوب	ف : F

obeikandl.com

إزالة التقاوى غير المنتجة	ب : B
إزالة ما تبقى من الحصاد	م ف : M F
زراعة الخضروات	ب : B
ضرب الأرز	ف م : F M
التسميد العضوى	ب : B
زراعة البقول	ف م : F M
إقامة قوائم لزراعة البقول	م ف : M F
جمع البقول	م ف : M F
قطع الحشائش من مزارع الطماطم	ف م : F M
إقامة الحواجز	ب : B
بناء حوائط	م ف : M F
إصلاح الدقس	ب : B
التسميد الصناعى للتربة	ب : B
زراعة البطاطا	م ف : M F
جمع جذور البطاطا	ف م : F M
اعداد الحقول	ب : B
الرعاية للحيوانات فى المراعى	م ف : M F
قطع الحشيش للحيوانات	م ف : M F
عمل الأسوار	ب : B
أعداد حزم البامبو لربط الأرز	م ف : M F
عصر القصب	ب : B
نقل الأرز من المزارع	م ف : M F
تقليب الأرض الجديدة العالية	ب : B
" – البحث عن الطعام –" (search for food)	
صيد السمك	م ف : M F
صيد الطيور	م : M
جمع الجمبرى	م : M

obeikandi.com

صيد العصافير فى الشباك	م : M
الصيد بالجوبية فى حقول الأرز	م ف : M F
جمع القواقع الصالحة للأكل	ف م : F M
جمع الخنافس	ب : B
الصيد	م : M
" – مهمة بناء المنازل – " "House-building tasks"	
عمل الطوب اللبن للبناء	ب : B
الأسـقف	م : M
جمع الخشب للبناء	م : M
اعداد الوقود	م : M
اعداد الأرض للبناء	ب : B
نقل المواد لموقع البناء	ب : B

ب : B = مهام يقوم بها بالتساوى النساء أو الرجال ، ف : F = مهام يقوم بها النساء فقط ، م : M = مهام يقوم بها الرجال فقط ، ف م : F M = مهام يقوم بها عادة النساء ، م ف : M F = مهام يقوم بها عادة الرجال .

وربما تود أن تعرف ما إذا كانت مثل هذه التقارير عن عمل المرأة محصورة أو محددة فى دول العالم الثالث على وجه الخصوص فكر فى الآتى : عندما تعتنى المرأة برجل مريض فى المستشفى ، نسميها ممرضة وندفع لها أجرا ، وعندما تقوم بنفس العمل فى المنزل نسميها "أم" ولا ندفع لها . وفى الحالة الأولى يحسب العمل كجزء من إجمالى الانتاج المحلى G.D.P. ، وفى الأخير لا يحسب ... لماذا ؟

(Oakley, A., 1982, pp. 140 - 141.)

المرأة والتنمية :

لقد رأينا أن الرجل والمرأة يشغلان أعمالاً مختلفة ، ولهما مكانة مختلفة ، وتقسيم العمل والمكانة الإجتماعية ، وثيقا الإرتباط بعضهم ببعض ، وبما أن المرأة تعمل وتشغل وظائف مختلفة عن الرجل فانهن يعاملن معاملة مختلفة وهذه المعاملة المختلفة نتاج القيم المختلفة والتى تؤثر على عملهن ، وأحياناً تنخفض مكانة المرأة العالية نسبياً عندما تحدث التنمية (أنظر إطار ٨ – ٤) .

opeikanar.com

إطار ٨ – ٤ التنمية ونساء الإكونج : –

(حرف الـ "إ" قبل حرف "الكاف" ، تمثل صوت كلك فى بعض لغات جنوب أفريقيا) ، تصف "أنَ أكُلِى" طريقة نمطية للتنمية تؤثر فى المرأة مستخدمة حالات شعب الإكونج المقيمين بصحراء كاليهارى بجنوب أفريقيا والتى درستها "باتريشيا درابر" P. Draper

فهى تقول : –

إن التغير الجذرى فى الاقتصاد يؤثر على المرأة وعلاقتها بالعمل . والاقتصاد التقليدى لشعب الإكونج يدفع الناس ... ويعطى المرأة دوراً هاماً كزراعية تقدم الإنتاج الزراعى للدولة ... وفى أواخر الستينات بعض ... "بعض الناس" ... حيث بدأوا يعيشون حياة مستقرة مع الرجال الذين يقومون بالرعى وتربية الماشية والمرأة تقوم بالزراعة . هذا التغير من نمط الترحال مغيرين طبيعتهم ، صاحبه تغيرات ملحوظة فى العلاقات الإجتماعية بين الأجناس "the sexes" وتحديد أدوار النوع "gender roles" فى ظل الخلفية الزراعية ... تتمتع المرأة بقوة هائلة من الاستقلال الذاتى داخل المجتمع . وعندما تتغيرالظروف الإقتصادية إلى طريقة متسقرة فى الحياة ؛ عن طريق تناسل الحيوانات ، وزراعة المحاصيل تصبح العلاقة بين الجنسين "الرجل والمرأة" سيمتريه ، أى متناغمة ، وتفقد المرأة استقلالها . وهناك عامل هام يفسر تراجع مكانة المرأة ، وهو العلاقة بالنسبة للعمل . ففى المجتمع الزراعى هن عاملات مستقلات ، يستطعن السيطرة على منتجات عملهن "الغذاء" ، كما يكن دائمات التحرك مثل الرجال ولا يتقيدن بالمنزل وسفرهن خارج القرية للحصول على الطعام أعطاهن فرصة التعرف على الحياة "مكان المياه ، والحيوانات... الخ" وذلك يمثل حجما سياسيا كبيرا وهاما ويجعلهن على قدر من المعرفة التى تمكنهن من البقاء . وعندما تزداد الحياة استقراراً ، ينمو نمط من الغياب ناتجاً عن غياب الرجال ، حيث يمارسون مهنة الرعى والأعمال ذات الأجر خارج القرية ، فتصبح المرأة أكثر ارتباطاً بالمنزل ، وبالتالى يحصل الرجل على هالة من السلطة . وقد استطاع الرجل بحنكته أن يفترق عن المرأة والأولاد ، وفى نفس الوقت تزايدت الخدمات المنزلية من إعداد للطعام – والذى أصبح أكثر تعقيداً – والممتلكات المادية تكاثرت وأصبحت البيوت أكثر بقاءً أو دواماً ، وملكية خاصة . والقول بالمساواة فى تربية الأولاد أصبح مرتبطاً بالفروق فى المسئولية والفروق بين النوع "gender-differentiated" فالمتوقع أن يساعد الولد فى تربية الماشية وأن يكثر خروجه من القرية بانتظام ، بينما البنات أصبحت حياتهن أكثر ضيقاً تحددها دائرة النشاط المنزلى الأنثوى Okley, A., 1982, pp. 139 - 142 .

وأحد الطرق التى تأثرت بها المرأة عن طريق التنمية يأتى من كونهن غير "مرئيات" للمخططين والسياسيين بالرغم من أنهن يقمن بعمل كبير فى الزراعة فى المجتمعات الريفية فى دول العالم الثالث ، وعندما يخطط للتنمية فإن هذا يُنْسَى . وعندما تعد الأرض الجديدة وتعطى للرجال ليزرعوا المحاصيل النقدية ، فإن هناك عدة ترتيبات من شأنها أن تعطى الرجال العائد من النقود ، والقدرة على التوسع فى الخدمات الزراعية دائماً هى هدف الرجال ... وفى كثير من الحالات كما فى حالة "الإكونج" نجد التنمية تعمل فى إطار يحرم المرأة من المزايا ، كمستهلك للتنمية . فتجد المرأة أن وضعها كتابع يستمر أو يزداد سوءاً بفقدها للأرض أو استبعادها من الأفكار الجديدة . وبهذه الطريقة تصبح المرأة تابعة أكثر للرجل رغم أنه لم يكن كذلك من قبل .

إطار ٨ – ٥

التنمية تزيد من تبعية المرأة للرجل

هناك مشكلة هامة عندما تصل التكنولوجيا التى توفر العمالة نجدها دائماً تأتى على عمل المرأة ودائماً تفرض سيطرة الرجل . أما بعض الآلات الصغيرة مثل عصارات الزيوت وطحن القمح ، أو آلات التقطيع ، فإنها توزع أو تباع بالتقسيط للرجال عن طريق مؤسسات التنمية ، حتى لو كان العمل بديل أو تقليدى للمرأة . وعلى سبيل المثال مطاحن القمح فى "كينيا" أصبحت سهلة الوجود فى "كينيا" ولكن المرأة لم تدرب على العمل بها ؛ ومعاصر الزيوت فى "نيجيريا" ، وآلات طحن الذرة فى "المكسيك" وخلافه ؛ إلى جانب آلات عمل "النشا" فى "الساجو" فى "السرواك" فإنها أيضاً تشترى وتدار بواسطة الرجال ، وذلك لأنهم فى استطاعتهم أن يشتروا نقداً ، أو بالتقسيط . كما أن هناك رغبة شديدة أو عرض شديد من جانب السيدات لشراء آلات لإنتاج الأغذية المطبوخة ، ولكن بدون ضبط وتجهيز لهذه الآلات أو المعدات ، فأصبح بإمكانهن القدرة على تخفيف ضغط العمل فقط باستمرارهن واعتمادهن على آلات الرجال وهذا يعنى أنه يمكن صرف أى نقود يمكن ادخارها لهذا الهدف أو الغرض . وهذا الموقف يساعد على تعزيز القول بأن النساء لا يمكنهن إدارة الآلات ، ولكن هن فقط يستطعن العمل مع العمليات الإنتاجية المنخفضة ، والأقل قيمة .

(low-Productivity and low-Value operations.)

(Rogers, B., The Domesticatication of women, Kogan Page, 1980, p. 173)

التفرقة فى الجنس أو النوع فى علم الاجتماع

إن حصافة النساء وخبرتهن تظهر سواء عند الاستهلاك أو الإنتاج مثال القراءة والكتابة فى جدول (١) يوضح أنهن أقل استهلاكاً للتعليم بنفس نسبة الرجال ، ولكنهن أكثرتسرباً من التعليم وكون المرأة لا يُدْفَع لها نقود على الأعمال المنزلية ، أو العمل فى المزارع فذلك لا يدخل فى الإحصاءات القومية . (أنظر إطار ٩ - ٢) الذى يوضح أن عملهن دائما "يُخْفَى" عن الحكومات . هذان المثالان يوضحان المركز التابع للمرأة وأنه يمكن تعزيزه لأننا جميعاً - ويشمل ذلك كثير من السيدات - نميل إلى النظر إلى المجتمع أو الحكم على المجتمع من خلال عيون الرجال . وتذكر أننا عند الإشارة إلى مؤسسى علم الاجتماع فى هذا الكتاب لم يكن بينهم سيدة ، ودائماً يُطْلَق عليهم "الآباء المؤسسين" وحقاً باستثناء "إنجلز" [الذى كتب عن الأسرة وذكر شيئاً عن المرأة] لم يكتب واحداً منهم إطلاقاً عن المرأة ، وهذا يعكس التحيز ضد المرأة فى العالم الغربى ، كما أن هناك عمليات تحيز ضد المرأة فى العالم الأكاديمى جعلتنا ننحاز للعالم الثالث . وعلماء الاجتماع الذكور مالوا إلى عدم الكتابة عن المرأة ما عدا القلة منهم مثل : "مارجريت ميد" "M. Mead" ، وهناك قليل من السيدات عملن كعالمات "أنثروبولوجيات" و "سسيولوجيات" واهتممن بدول العالم الثالث ، وقطعاً الصور التى لدينا عن هذه المجتمعات هى فى الواقع رؤية رجال ، فمن المتوقع أن يميل عالم "الأنثروبولوجيا" أو "الاجتماع" إلى الكلام وقضاء وقته مع الرجال ، وخاصة فى المجتمعات التى يمارس الرجل والمرأة كلاهما حياته بعيداً عن الآخر . وهذه الحقيقة الهامة مثال هام للأبحاث المنحازة والتى تحدد بعمق فهمنا عن المجتمع فى كل من دول العالم الثالث وفى عالمنا ، والذى يمثل كل علم اجتماع التنمية ، ويجعلنا نفكر بدقة عن مجتمعنا ومجتمع الآخرين .

الجنس والنوع : "Sex and Gender"

"الجنس" هو مصطلح بيولوجى يصف الإختلافات الطبيعية بين الناس . أما "النوع" فهو اصطلاح لعلماء الاجتماع يصف الفروق فى السلوك الاجتماعى . وهذا فرق أو تمييز هام لأننا نخلط بين الإثنين ، وفى هذا الخلط نفترض أن الفروق الاجتماعية كان سببها فروقاً طبيعية أو جسدية وهناك حقيقة واضحة ترى أن الفروق الجسدية أو الطبيعية بين الذكور والاناث ليست هى التعليل للفروق الملحوظة فى السلوك الاجتماعى والأدوار الاجتماعية . ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر

(Rose, S., Kamin, L. and Lewont in, R., Not in our Genes, Penguin Books, 1984.)

وهذه التفسيرات تسمى الرد المنطقى reductionism * (انظر إطار ٨ – ٦) .

إطار ٨ – ٦ الرد المنطقى Reductionism

... هذا الاسم يُطلق على مجموعة من الطرق العامة أو النماذج التى توضح كل من الأشياء الطبيعية والمجتمعات البشرية ، بالمعنى الواسع . فدعاة هذا المبدأ يحاولون شرح خواصه المعقدة ككل . فالجزئيات "قل" أو المجتمعات – فى المصطلحات الوحدات التى يتكون منها الجزئيات أو المجتمعات تكون ساكنة أو هادئة وهم يقولون ، وعلى سبيل المثال ، أن خواص جزىء من البروتون يمكن تحديدها والتنبؤ بها فى ضوء مصطلحات خواص الالكترون ، والبروتون ، ... الخ التى تتكون منها ذراته ، وهم أيضاً يقولون أن خواص المجتمع البشرى شبيهة وليست أكثر من مجموعة من سلوك الفرد وميول أفراد البشر والتى تؤلف المجتمع . فالمجتمعات "عدوانية" لأن الأفراد الذين يكونونها "عدوانيين" على سبيل المثال . باللغة الرسمية فى مبدأ "الريدكشنزم" أو "الرد المنطقى" هى الادعاء بأن الوحدات المكونة للكل ... تسبق الكل ، بمعنى أن الوحدات وخصائصها توجد قبل الكل ، وهناك سلسلة من المسببات تأتى من الوحدات إلى الكل . (Rose, S. et, al, 1984, p.p. 4 - 6.) . ولقد ظهر كثير من التفسيرات تشبه " الريدكشنزم " كذلك توضيحات علماء الاجتماع مثل أفكار "ماكليلاند" "Mclelland" و "ناش" "Nach" (انظر الفصل الأول وإطار ٤ – ١) . مثال على ذلك علم الاجتماع عند "سبنسر" (انظر إطار ١ – ٩) نجد أن بعضهم وليس الكل مثل أصحاب النظرية الماركسية يحاولون أن يشرحوا كل شىء فى ضوء "القاعدة الاقتصادية" وهنا مثال آخر للفكر .

وهناك أبحاث كثيرة فى السنوات الأخيرة أمدتنا بأفكار واضحة عن أدوار "النوع"

* يستخدم هذا المصطلح فى العلم للإشارة إلى القدرة على استخدام مناهج للبحث وتحليل العلاقات وصياغة الفروض والنظريات والقوانين ، على أساس الافتراض بأن المناهج والقوانين الملائمة لتفسير مجموعة معينة من الظواهر تلائم أيضا ظواهر أخرى ، أى أن هناك نوعاً من الارتباط بين هذين النوعين من الظواهر . ومن الأمثلة على ذلك محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية على أساس قوانين العلوم الطبيعية ، أو تفسيرها على أساس الظواهر الاقتصادية .

– محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٧٨ .... [المترجمة] .

"gendr roles" والتى تختلف راديكالياً أو جذرياً بين المجتمعات . وبالرغم من أن المناظرة مستمرة" نجد إن هناك رأيا ساحرا يعطى وجهة نظر مخالفة أنظر

(D. freeman , Harvard University Pres, Cambridge, Mass and London, 1983)

وهناك تقبل على نطاق واسع الآن لفكرة النوع (الذكور والإناث) وأن الطريقة التى نتصرف بها كرجال ونساء جزء دائم من ثقافتنا أكثر من كونها جزءاً بيولوجيا (إنظر إطار ٨ – ٧) .

إطار ٨ – ٧

النوع والثقافة : "Gender and Culture"

إن الفرد يأتى إلى العالم بدون أفكار عن الذكر أو الأنثى وكيف يكونان ، ولكن تنمو عمليات التصنيف عندما يبلغ من العمر عامان ، وبالتالى تنمو الفكرة وتستخدم كأسلوب أو طريقة عن العالم الاجتماعى ، والحركات الإرشادية . وبدقة ما هى السمات التى سوف يستخدمها الطفل للتفريق بين العمل المناسب وغير المناسب لنوعه أو لنوعها وهنا سوف يعتمد على المؤثرات الثقافية . ومن ثم فإن محتويات القيم الداخلية ومفهوم دور " النوع " يعتمد على مؤثرات خارجية ، ولكن وجود الشىء الكامل للتصنيف والعمل على القاعدة الخاصة بالفئات مثل الذكر والأنثى يكون جزءً من صناعة الإنسان البيلوچية . بهذه الطريقة يمتلك الجنس البشرى المؤهلات العقلية لمظاهر التعاون فى ثقافتهم وعلى وجه الخصوص لرؤية العالم ، والتى تؤكد على الفروق بين الفئات . والمرء يمكنه القول بأن الناس "مُبْرمَجين" لينظروا إلى العالم الاجتماعى فى ضوء مصطلحات الإختلافات وأن "النوع" "gender" يمدنا بالمادة السهلة الموجودة لهذا البرنامج للعمل به . فبناء مرجع النسق الداخلى للنوع يحدث تدريجياً من خلال التنمية بدون أن يشعر بها الطفل . وأخيراً هو أو هى يصلون إلى أن ثقافتهم هى التى أنتجت عدة فروق نوعية مماثلة لما أوجدته الطبيعة من بناء للأشياء . بكلمات أخرى التربية والتغذية أصبحت طبيعية .

Archer, J. and Lloyd, B., Sex and gender, Penguin Books , 1982, pp. 211 - 212.)

رأينا فى الفصل الأول أن النظرية العلمية للتطور الإجتماعى كانت تستخدم لإضفاء الشرعية على الإستعمار . أما مع نظريات "الرد المنطقى ، المنطقيين البيولوجية" للسلوك الإجتماعى البشرى ، فنرى عمليات مشابهة ، حيث "العلم" يستخدم لمساندة المكانة الإجتماعية ويكون الإنسان ذا قوة ونفوذ على المرأة . علم الإجتماع كعلم ينبغى أن يأخذ القليل فقط كقضية مسلمة وينبغى أن يسأل عدة أسئلة عن الآراء العلمية والمعتقدات لعلم الإجتماع ، كما قلت فى الفصل الأول ، يسأل عن أشياء بحيث يجعل المألوف غير مألوف ، وغير المألوف مألوفاً بنفس الطريقة التالية :

نظرية التطور ليست جزء عديم الفائدة سلبى للتنظير العلمى فهي إما أن تساعد أو لا تساعد فى الفهم للقصص الشعبية عن أصل الإنسان .

(Midgley, M., Origin of the Specious, New Statesman, 22 November, 1985, p. 23.)

ومن ثم فالنظريات البيولوجية للسلوك الإجتماعى ينبغى لعلماء الإجتماع أن يقتربوا منها على حذر . والمدخل الإجتماعى يعتمد دائماً على فحصنا وتساؤلاتنا عن النظريات . "من يؤيدون ولصالح من ؟" ومن يهدمون وضد من ؟ ما هى نوعية المقولات الشعبية أو الشائعة ؟

الطبيعيون أو المذهب الطبيعى *

تطبق نظرية التطور على السلوك الإجتماعى ، وقد خدمت مصالح المواطنين البيض فى دول العالم المتقدم . فالنظريات البيولوجية للسلوك البشرى تخدم اهتمامات الرجل بينما يقال أن المرأة فى "تيوان" ، "وكوريا الجنوبية" على وجه الخصوص يناسبها العمل أمام قطع الكمبيوتر ، فكونهن سيدان فيناسبهن بيولوجياً مثل هذا العمل ، فهى سريعة ، ورقيقة ، ودقيقة فى عملها ، وهذا تفسير يميل فى الغالب أن يكون تابعاً "للمنطقيين الرادكشنزم" والبيولوجيين والعنصريين ، وتفصيلاً نجدها كلية تحذف أى اعتبارات اجتماعية أو سياسية لمركز المرأة فى تلك البلاد . ولا تأخذ فى الإعتبار الضغوط التى تجعلهم أقل من الرجال بالنسبة لهذه الأعمال . فهن أقل تكلفة كعمالة لأنهن "غير ماهرات" أو شبه ماهرات لأنهن على درجة ضعيفة من التعليم ، والقانون لا يحميهن . (إنظر إطار ٨ – ٨) .

---

* المذهب الطبيعى Naturalism هو نقيض للمذهب الفلسفى المثالى ، حيث أنه يرى أن كل الظواهر – طبيعية ، أو اجتماعية – محددة بقوانين الطبيعة وتفسر وفقها ، ولذلك يفسر السلوك الاجتماعى والظواهر الاجتماعية بقوانين حتمية ، والتفسير الغيبى أوالميتافيزيقى مرفوض .... [المترجمة] .

إطار ٨ – ٨

السيدات كعاملات ماهرات

"الأنامل الرقيقة" الشهيرة للنساء الصغيرات ، ليست ميراث من أمهاتهن كما يرثن لون البشرة ولون العين ، فهى نتاج التدريب الذى تلقينه من أمهاتهن ومن أقاربهن من النساء فهن منذ الطفولة يتلقين ما يناسبهن كسيدات للمستقبل . وعلى سبيل المثال الخياطة الصناعية للملابس تشبه إلى حد كبير آلة الخياطة المنزلية ، فالفتيات الاتى تعلمن الخياطة فى المنزل تجد لديهن المهارة والقدرة للدراسة المطلوبة ... إن هذا يرجع إلى أنها قد تلقت جزءاً من التدريب الأنثوى فى المنزل وهو شىء مجهول أو غير مرئى خاصة وأن المهارات التى تبديها قريبة من طبيعتهن وطبيعية ، وأن الوظائف التى تعمل بها تصنفها على أنها غير ماهرة أو "شبه ماهرة" .

(Elson, D. and Pearson, R, The subor dination of women and the Internationalsation of factory Production , in Young, K., wolkowitz, C. and McCullagh, R (eds.). of Marriage and the Marcket, CSE Books, 1981, pp. 149 - 150)

إذا ماطبقنا التطورية والبيولوجية على المجتمع نجد أن عندهم شيئا مشتركا تجاه المجتمع وهى أنهن يرجعن السلوك الاجتماعى إلى "الطبيعة" وبذلك فهى غير متغيرة – هذا الرأى دُرس بجدية فى علم الاجتماع فى إطار ٨ – ٦ ، ٨ – ٧ . كلاهما يشير إلى التساؤل : لماذا يقدم الطبيعيون الصعوبات كطريق لشرح السلوك الاجتماعى ؟

النوع والسياسة :

إذا نظرنا إلى "النوع" "gender" على أنه أدوار ثقافية كنتيجة لما نعتقد وليس ما نحن عليه يمكنك أن تسأل أسئلة عن مدى إمكان تغييرهم وتحت أى ظروف ؟ فالسيدات يسلكن سلوكاً مختلفاً فى المجتمعات المختلفة . هذه الحقائق تعطينا بعض الأفكار حول كل من السلوك المختلف ، والأدوار الاجتماعية ، وما هو ممكن . والنظرية الخاصة بالنساء تقول أن مركز المرأة فى المجتمع ليس "طبيعى" ولذا يمكن أن يعد شيئاً يمكن تغييره . التغير يشمل أن نناقش الحقائق المتقبلة من المجتمع ، كذلك نناقش مراكز هؤلاء المستفيدين من هذه "الحقائق" وبسبب هذا التغيير يعد نشاطا سياسيا هاما . ففى حالة مركز المرأة فى التنمية فالسياسة

لكى تحرز القوة التى تشكل المجتمعات الأفضل التى تقابل احتياجات نسبة ٥٢٪ من سكان العالم أي نسبة تواجد النساء مثل هذا التغير حتما يؤثر فى مركز الرجال ويشتمل على أنواع كثيرة من السياسات يبدأ متباطئاً ولكن متأكداً من أن هذا الضغط سوف يؤدى إلى تعليم المرأة وأن تتلقى رعاية صحية كافية ليقابل احتياجاتها الخاصة ، وأن تحصل على المساعدات الخاصة ، وتحصل على قروض لمزارعها ، لمزيد من المظاهر السياسية الاستعراضية كنوع من المصادقة مع "الحركات النسائية" . (إنظر إطار ٨ – ٩) . وفى النهاية فهى تطلب تغيير للقيم والطرق التى يمكن بها للرجل والمرأة أن ينظروا إلى العالم . وليست مسألة بعض المبادرين لتحسين أوضاع المرأة تاركين السلطة والقوة والمكانة فى قبضة الرجل ، بل هى أمر مثله مثل الجماعات المضطهدة دائماً يحثهم أو يدفعهم إلى المحاولة للسيطرة على حياتهم اقتصادياً وثقافياً .

إطار ٨ – ٩ السياسة والمرأة

هذه النقطة تحتاج معالجة من هؤلاء السياسيين والاستشاريين ، وصانعى السياسة ، ومُنفذى السياسة ومستخدميها على المستوى القومى والدولى ، ويشمل ذلك المرأة فى التنمية "زيادة مكانة المرأة" ... الخ . إن معظم الحاجات الفردية الهامة والطريقة الأكثر أهمية فى المساعدة هى أن تجعل الموارد والإعلام فى يد منظمات ذات فاعلية ليصلوا إلى الاعتراف بالنوع الأدنى والتابع أى المجتمعات القائمة على الاعتراف الظاهرى للنوع التابع ، ويحاولون تنمية أنواع من الروابط والتى من خلالها تستطيع المرأة أن تقيم أو تُنشىء عناصر لها الهوية الاجتماعية فى نطاق حقوقهن ، وليست من خلال وساطة الرجال . مثل هذه المؤسسات لا تحتاج إلى استشاريين سياسيين لكى يوضحوا لهم ماذا يفعلون ، والإشراف عليهم وارشادهم ، ولكنهم يحتاجون لمصادر حماية من قدر لا يمكن تفاديه من هؤلاء الذين لهم اهتمام فى الحصول على تفسير لدور المرأة العاملة ، وتبعية المرأة كنوع . ومن المهام الضرورية للمؤسسات الشخصية والقومية والدولية هو القيام باستخلاص كيفية تسهيل الوصول لهذه المصادر وإتاحة الحماية – وليس فى كيفية توصيل عدة تحسينات جاهزة الصنع مغلفة وتسمى (برامج المرأة)

(Elson, D. and person, R., 1981, pp. 165 - 166.)

ماذا حدث للمرأة فى دول العالم الثالث : -

مما لا شك فيه أن الإستعمار والتنمية قد غيرا حياة المرأة فى دول العالم الثالث ، كما غيرا أشياء كثيرة أخرى . فالحكومات الإستعمارية قدمت التعليم للمرأة ، كما حاولوا حماية المرأة من التجارب غير السارة مثل "الختان" ، ولكن فى نفس الوقت نجد أن عندهم آراءهم الخاصة عن - كيف تسلك المرأة - ، والعمل المناسب لها ، والتحولات الإجتماعية التى أحدثتها التنمية الرأسمالية دائماً غامضة . هل من الأفضل أن تكون دائماً جاهلة منعزلة كزوجة لفلاح غنى ، أو امرأة متعلمة تعمل ساعات طويلة فى مصنع ؟ هل من الأفضل أن تكون زوجة فلاح فقير أو زوجة عامل مهاجر تتلقى نفقاتها بين حين وآخر ، وتنشىء أسرة كبيرة ، وتنشىء منزل صغير بمفردها ؟ هذه الأسئلة صعبة الإجابة ، مهما كانت الإجابة أو التغيرات ممكن أن تكون مجرد نوع من المقايضة كى يجعل النوع أو الجنس الآخر يتبعه ويخضع له (أنظر إطار ٨ - ١٠)

إطار ٨ - ١٠

تبعية النوع : قوته ، تحلله ، وإعادة تكوينه : -

يشير "إليسون" "Elson" ، و "بيرسون" "Person" إلى تشغيل أو توظيف المرأة فى المصنع "فى القطاع الحديث" وهذا العمل الذى من خلاله تزيد تبعية المرأة للرجل ، كما يحدث فى التنمية ، فهما يقولان أن مثال أشكال خضوع النوع ربما يزداد فى حالة الإتحادات القومية المتعددة ، والتى تعمل فى "ماليزيا" والتى تعمل بطريقة مخططة للمحافظة على استخدام الأشكال التقليدية للقوة الأبوية وسلطة الرجل ... فقيمة البنات "daughters" الإقتصادية تكون حافزاً للآباء لكى يكونوا أكثر تحكماً فى إرسال بناتهم للعمل فى المصانع سواء أردن أم لا .

"... ومثال للطريقة الموجودة ... خضوع وتبعية النوع ربما تفكك ، ويمكننا أن نحدد ... أهمية العمل فى المصانع كطريقة للهروب من زواج مرتب أو معد مسبقاً فى بعض دول آسيا . فى ... ففى المجتمع الذى تسوده الرأسمالية للإنتاج "حرية اختيار" الزوج سلاح ذو حدين ... الزواج الذى يميل إلى أخذ سمات السيطرة السائدة فى المجتمع ، والاختيار فى السوق بين السلع المتنافسة . وأن النساء أنفسهن هن اللاتى يقمن بالأشراف على السلع المتنافسة ،

بينما الرجال هم الذين يختارون .

هذا الإتجاه نحو إعادة التأليف بما يسميه الرأسماليون الأشكال السلعية لعملية الزواج ، فإنه يشجع عن طريق ممارسة أنماط شبيهة بشركات متعدة الجنسيات الالكترونية الأمريكية ، والتي تقدم دروساً فى الموضة و " العناية بالجمال " وتنظم مسابقات الجمال ، والحفلات الراقصة على الطريقة الغربية ، والحفلات الإجتماعية لموظفيها . " بالرغم من شكل خضوع وتبعية النوع فإن خضوع البنات لآبائهن ربما تنهار ، أو تتفتت ، وهناك نوع آخر من خضوع النوع وتبعية هؤلاء النساء المستخدمات وتبعيتهن للرجال ، أو للذكر ، أى لمدير المصنع ، وهو شيء ملحوظ منذ بداية نشأته ، فالعمل فى المصانع العالمية ينظم من خلال بناء هرمى رسمى مع وجود عاملين فى القاعدة يتحكم فيهم بمستويات مختلفة ، مجموعة من المشرفين أو المديرين . وفى دراسة تلو الأخرى نجد نفس النمط . نجد أن السيدات الصغيرات المستخدمات دائماً فى قاع التنظيم الهرمى ، أما التنظيم العلوى ... فنجد فيه الرجال على اختلاف مستوياتهم وفى هذا التكوين لأشكال الخضوع والتبعية النوعية نجد السيدات الصغيرات هن دائماً تحت سيطرة الرجل ، والذى لا يكون على قرابة لأسرهن ، ونجد أن له نفس التأثير . تكثيف للأشكال التقليدية لتبعية وخضوع النوع .

(Elson, D. and Pearson, R., 1981, pp. 157 - 159.)

وفى هذا العالم الكبير ، نجد أن المرأة لها مكانة مختلفة سواء فى العالم المادى أو الثقافى . فهى تأكل بعد أن ينتهى الرجال والأولاد فى الأسرة بالرغم من أنها أعدت الطعام لهم ، وهذا نوع من عدم المساواة الموجود فى بعض دول أفريقيا والشرق الأوسط والهند . وهكذا نجد أن هناك قيودا موضوعة على الحركات والمهن وخاصة نساء الطبقة المتوسطة الثراء والتى ظهرت عن طريق أيدولوجية "الماشيزمو" فى الضواحى الغنية فى "ساو بولو" فى البرازيل ، أو فى "بيونس أيرس" فى الأرجنتين . وفى العالم الإسلامى (والذى يمتد من "المغرب" غرباً إلى " أندونسيا " فى الشرق ، وعبر مصر وباكستان والإتحاد السوفيتى فى وسط آسيا) ، والتعاليم الدينية تقول إن المرأة لا تساوى الرجل ويجب أن تُحمى وتنظم بالرجال . والقرآن يقول ما معناه : -

"الرجال قوامون على النساء لأن الله فضل بعضهم على بعض ولأنهم ينفقون أموالهم للحفاظ عليهن ، وأمر الله المرأة بالطاعة ، وأمرها بالحجاب لتخفى أجزاءها لأن الله يرعاها .

أما بالنسبة لغير المطيعات ، فعاقبهن ، واهجرهن فى المضاجع ، واضربهن

(The Koran, translated by dawood N.J., Penguin, 1968, pp. 360 - 361.)

مثل هذه التعليمات السامية لها تفسيرات اجتماعية . ففصل السيدات عن الرجال يجعلهن قادرات على المعيشة بحرية فى حياتهن الخاصة . ومن خلال قيود صارمة ، وبالرغم من ذلك نجدهن يعشن حياة أفضل من حياة "المرأة الحديثة" فالمرأة غير مكرمة أو مُتحرش بها كما هو فى غير العالم الإسلامى كالهند ، فالمدن الهندية تظهر أن :

الإساءة للسيدات (جسدياً ولفظيا) وهتك الأعراض ظاهرة لـ ... وهذا الإتجاه يحرمها من إنسانيتها ، "والذى يقلل منا أو يجعلنا أجسام يستخدم ويساء إستخدامها إن هذه الأجسام ليست إلا أكل معد للبيع من أجل حفنة روبيات أو تباع لفترة من الزمن نظير "دوطة" تلقى إلينا وهنا يمكن أن يداس عليهن وأن يعاملن كعينة إذا لم تكن الملكية المحمية لرجل واحد ، فأى رجل فى استطاعته أن يشتريهن إذا استطاع ، وإذا لم يستطع فيستحوذ عليهن بالقوة . وهذا الرجل ليس بالضرورة منحرفاً أو فاسداً ، فقد يكون عجوزاً محترماً ، كالذى يجلس بجوارك فى السينما ، ويقوم بمعاكسات دنيئة ، أو فى سيارات النقل العام أو صديق "boyfriend" يُعَبِّر عن حبه باغتصابك أو اغتصاب أى فتاة ، ووالده يعبر عن ذلك بكل فخر ويحافظ على عروس له . وهو دائماً الذى يستخدم النساء اللائى يتحملن سوء معاملته لهن لكى يحافظن على وظيفتهن . كما تتحمل النساء صاحب الأرض التى يزرعنها ، ورجل الشرطة الذى يلجأن إليه للمساعدة ... الإساءة الأنثوية ... وهى طريقة تسبب الاحتقار لنا (أى النساء) لكوننا نساء . وهذا حقيقى سواء وجهت لنا هذه العبارة " أهلاً ياحلوة " ، أو ناداها بأفحش الألفاظ ... إنها محاولة منظمة لتدمير إحساسهن تجاه أنفسهن ... والعنف الجنسى هو محاولة لجعل المرأة دائماً مضطهدة ، وفى حالة دائمة من الخوف .

(Editorial in Mannsh : A Journa About women and Society, New Delhi, quoted in Leghorn, L. and Parker, K., Woman's Worth, Routledge and Kegan Paul, 1981, pp. 152 - 153.)

وفى شرق آسيا نجد أن "الكونفوشية" التقليدية يتضح فيها احتقارهم للمرأة . ومن خلال هذا التقليد نجد أن هناك نظاما هرميا – من الكبير إلى الصغير ، ومن الحكام للمحكومين ، ومن الرجال للنساء – كل هذا يبدو ظاهرة طبيعية فى المجتمع . وبالرغم من ذلك فالمرأة

تدخل فى مجال العمل فى السوق بسبب وضعها المتدنى ، وينتهى بها ذلك المطاف إلى تحملها لعبئين ، عبء رعاية الأطفال والمنزل وعبء الوظيفة . وفى كل مكان فى العالم نجد أن عمل المرأة لا يتم (أنظر إطار ٨ – ١١) . وفى أمريكا اللاتينية أكثر من غيرها فى أماكن أخرى من العالم الثالث ، فتقوم المرأة بكثير من الأعمال ، وتمكنهم ظروفهم من القيام بمهن كثيرة لوجود العمالة الرخيصة من النساء اللاتى يدفع لهن القليل ليعملن ما هو شاق . إن المجتمع (ليس فقط فى دول العالم الثالث) ملىء بمثل هذه السخريات ، ولا يوجد مكان يخلو من تداخل عدم المساواة بين النوع والطبقة .

إطار ٨ – ١١

العبء المضاعف : بينما الرجال يلهون ، تدفع النساء : –

المرأة "الأثيوبية" الفلاحة... تبدأ نهارها مبكرة وتنتهى يومها متأخرة فى الليل عن زوجها وأطفالها ، لكى تقوم بمعظم الأعمال ، مما يعطى الرجل فرصة النوم العميق ، والتمتع بأوقات فراغه اجتماعياً . والمرأة "الأسيوية" تعمل فى المزارع طول الوقت وعلى مدار السنة كزوجة ، وكعاملة فى موسم النماء ، بينما زوجها يستمتع بأوقات الفراغ بعد الإنتهاء من العمل فى المزرعة . والنساء فى شمال الهند يعملن فى مزارع الشاى من ساعتين إلى أربع ساعات يومياً أكثر من أزواجهن (وهذه المدة لا يدخل فيها ما يقمن به من عمل داخل المنزل) . والأزواج المهاجرون فى "مازاهو" فى مدينة "المكسيك" يقلعون عن العمل ، إذا حققت زوجاتهم مكسباً أو ربحاً فى العمل ، وربما يحملون الأقفاص أو الصناديق لزوجاتهم كمساعدة ولكن فى أوقات أخرى وببساطة يتمتع هؤلاء الرجال مع أصدقائهم من الرجال بالجانب الإجتماعى . والأزواج "الصينيون" العاملون فى المزارع الجماعية يقضون وقت فراغهم فى أثناء تناولهم للغذاء أطول فترة ممكنة على حساب راحة زوجاتهم ، اللاتى يجب عليهن إعداد الطعام ورعاية الأطفال فى ذلك الوقت . هذه المواقف لا تختلف كثيراً عن الرجل والمرأة فى المدن الصناعية ، ففى أمريكا ، فهما يعودان معاً إلى المنزل فيجلس هو ليشاهد التلفزيون ، إلى أن يتناول طعام عشائه ويخرج بعد ذلك لمقابلة الأصدقاء من الرجال ، فى حين تقوم هى بترتيب المائدة ، وتنظيفها ، ومصاحبة الأطفال للنوم . وهناك دراسات تبحث عن عدد الساعات الأسبوعية التى تؤديها المرأة والرجل (والتى تشتمل حتى على أعمال المرأة المنزلية) وفى قرى آسيا وأفريقيا يظهر هذا التعارض أو التناقض ، ففى دولة "كالفلبين" نجد أن المرأة تعمل فى الأسبوع ٦١ ساعة بينما الرجل يعمل ٤١ ساعة ، وفى "أوغندة" تعمل المرأة ٥٠

ساعة بينما الرجال ٢٣ ساعة ، وفى قريتين فقط من كل عشرة من قرى العينة كانت المرأة تعمل مثل نفس العدد من الساعات أو أقل من الرجال ولكن هناك شك فى أن العناية بالأطفال من قبل النساء والحفاظ على شغل المنزل قد سجل .

(Leghorn, L. and Parker, K., 1982, pp. 193 - 194.)

وفى المجتمعات التى ناصرت أو ناشدت الطريق الثورى للتنمية ، ظهرت محاولات لتحسين مركز المرأة . وفى مثل هذه الأقطار فالموقف غير مستوٍ ، أو غير مستقيم ، بالرغم مما قيل بلاغياً ، فما زال الرجال يسيطرون على الموقف بشدة . وفى الدول الإسلامية مثل "الجزائر" ما زال الحجاب وعزل المرأة موجودا . كما هو الحال فى "وسط الإتحاد السوفيتى" فى وسط آسيا ، وفى "اليمن الجنوبية" ، فهناك تغير ملحوظ . وهناك مظهر آخر لعدم التساوى بخصوص الأعمال المنزلية . وفى الإتحاد السوفيتى طبيبات ومهندسات يقمن بأعمالهن ، ولكن يتوقع منهن الرجال ، فى نفس الوقت تحمل العبء المضاعف وذلك بقيامهن بالأعمال المنزلية . وفى ظروف الحرب الثورية كما كان فى "فيتنام" حملت المرأة السلاح وحاربت إلى جانب الرجل ، ولكن عندما انتهت الحرب بالفوز ، عاد "النوع" مرة أخرى بشكل طبيعى . وفى "أرتيريا" فى شمال الحبشة ، حيث يتصارع الناس من أجل الاستقلال فى "أثيوبيا" ، لقد رأيت المرأة تحمل بندقية كالاشنكوفز ، ومستعدة للقتال إلى جانب الرجال ، ولكن عليها واجب إعداد الطعام وتقديمه ، وهى دائماً مستعدة لأداء ذلك ، ومع ذلك فإنها مسألة أولويات . ففى الريف "الإريترى" تحسنت أحوال المرأة بكل تأكيد عن طريق الثورة . وتغيرت العلاقة بين الرجل والمرأة . فالمرأة لا ترغم على إتمام زواج سبق وأن أعد له ، ويمكنها الحصول على الأرض ، والسيطرة على الإنتاج الخاص بعملها وعندما كنت هناك عام ١٩٨٥م كان يوم المرأة العالمى ، وأقيم لها احتفالاً كبيراً ، بينما مر هذا اليوم فى انجلترا دون أدنى ملاحظة .

الملخص :

فى هذا الفصل رأينا تبعية وخضوع المرأة للرجل فى كل المجتمعات . هذه التبعية ليست "طبيعية" ، ولكنها ثقافية . ومؤسسى علم الإجتماع (الآباء المؤسسين) لم يكتبوا عن المرأة إلا ككونها جزء من "الأسرة" ، واستمر اختفاؤها إلى أن قام دعاة المرأة من الباحثين وأظهروها . وهذه الأبحاث تُظْهِر أن التنمية تؤثر فى المرأة ، ولكن بطرق غامضة ، ولكن على طول الزمن فإن تبعيتهن تغير شكلها : (شكل التبعية) . ربما التنمية الأساسية والحقيقية والتى يجب أن تأخذ مكاناً فى المجتمع البشرى هى فى أن تقوى المرأة .